العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي
سنة: 53
سنة التأسيس: 1969/2/7
الخميس 19 يناير 2023
الموافق 26 من جمادى الثانية 1444

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط
Bach1969med@gmail.com

زهرة بتجاعيد مُبكرة !

شتَّان بيْن النُّضْج والنُّبوغ، فالأوّل قد يتساوى فيه البشر مع الطماطم في مواسم الجَني، أما الثاني لا ندركه إلا باستثمار كل دقيقة في التحصيل وصقل الموهبة، خصوصا في مرحلة الشباب، ويبدو أنه لم يبْق من العُقول في البلد إلا الطَّماطم، وقدا نضج بعضها من فرْط تراخيه في تدْبير الأزمات حَتى اخْتَمَجْ !

ألمْ تر كيف يَنْعمُ هذا البعْض المسؤول يا حسرة، في بَحْبُوحة الخَرَف، دون أن يُكلف دماغه الشقاء قيْد تفكير كي يعرف، أنَّ أفْظع سنّ قدْ تمْنَى باليأس هي مرحلة الشباب، ولنا أنْ نتخيَّل ماذا يحدث حين ينْقلبُ الهرم السُّكاني، ليُصبح أغلبية اليافعين شيوخا، يُقابلون الحركة بالشلل، البريق بالأفول في الأعْين، الصَّوت بالخَرس، التفْكير بالتَّبلُّد والدَّوْخة الرَّخيصة، العَمل بالأذرع المُنكسِرة، لنا أن نتخيَّل كيف تتَّسع رُقْعة جيل الرَّماد حين تنْطفىء شعْلة الأمل !

لم يكُن ليخْطر ببالي يوماً، أنْ يأتي جيلٌ يتَّخذُ الفراغ شعاراً سياسيّاً للتعبير عن الرَّفْض، بل تجاوز الشعار إلى صياغة بيان تَصْعيدي، فكأنَّ الأصابع التي دبَّجتْهُ هي نفسُها في الزَّنْد، تُطلق مع كل نُقطة تَضعُها في آخر السَّطر، رصاصة قد تُخطىء في حاضرنا المَقْتل ولكنها تُصيبُ في السُّويْداء المُستقبل، فالدِّراسة في نظَر هذا الجيل، مُجرَّد حشْو بأكْوام مُقرَّرات فوق طاقة الأدْمغة، تُنْهكها قبل الأوان وتؤدِّي للتلَف، ثُم ما جدْوَى أنْ أُضيِّع نصْف عُمري خلْف جُدران الدِّراسة، إذا كان آخرُ باب في سُورها العظيم، يُفْضي للشَّارع وليس الصِّين، البحْرُ أهْوَن إمّا إلى الضفة الأخرى حيث الشقاء يُقدَّرُ بثمن، أو أعود ببعض أشلائي في بطن السَّمك إلى الوطن، على الأقل سأُصبح أنْفَع حين أُساهم ببقايا لحمي ودمي، في السَّلة الغذائية للمُجْتمع !

لا يحْتاج بيانُ الفراغ الَّذي يتَّسعُ كُلَّ يوم بأسْطُر جديدة، إلى النَّشْر في الصُّحف لتعُمَّ الكارثة، ألَمْ تَرَ كيف أصبحنا غُرباء في رُقْعة ضيِّقة، لا أحد هناك في الأكشاك والمكتبات والمعارض وقاعات السينما والمسارح، إلا منْ بعض الإستثناءات المَعْدودة رُبَّما بسبب خلل في هرمون الوعْي الشّقي، لا أحَد يشْغل حيِّزاً في الكرسي أوْ الفضاء، وبين يومٍ وآخر لا نمْلك غيْر أن نَتحسَّر، خُصوصاً حين يُقرِّر كاتبٌ أنْ يترجَّل عن صَهْوة القلم، ولا فرْق بين أن تتوقَّف عن الكتابة والموت الذي يليه الصَّمْتُ للأبد، لِمَنْ يؤلف بعد أنْ تمدَّد التصحُّر الفكْري، وبيعت المواقف بأكْياس العلَف!

لقد اسْتجار الشُّبانُ بالفراغ، وتركوا النَّوادي حقولا جرداء لا تصلح حتى لزراعة اللَّفْت، ولا شيء يُعوِّض وجودَهم الحيويَّ، غير تصريحات رسْمية زائفة في التلفزيون تُزيِّن السَّراب بعبارات كاذبة مثل (..إنها لفتة طيبة)، ومنْ أيْن للبلد بدون هذه الطبقة النَّشيطة، تلْك الدِّينامية التي تُروِّج للرَّأسْمَالين المادِّي والأدبي، حقاً ليس ثمّة عقَابٌ أقْسى من أنْ ألغي كُل مَنْ حولي مَن أبْسَط اهتماماتي، وذلك ما يصْنعُه الجيل الجديد، يُعاقب البلد ومَنْ عليها وحتى الموْتى الذين تحتها في الثرى، لأنَّهُم السَّبب الرئيسي الذي جعلهُ بالقُوَّة الطَّبيعية للتناسلَ، موجوداً على سطح الأرض، يَنْتقم بأنْ يُعْلن نفسه غائباً كبيراً ليس فقط في قاعة الدرس، بَل في كل الدواليب التي بحركتها تتقدَّمُ قاطرة البلد، يعيشَ كأنَّه لا يعيش، فارغاً من كل شيء يُؤثث المجتمع، لا يهتم بالسياسة ولا الثقافة ولا الأدب ولا الفُنون، وإذا أحبَّ الرياضة ليس امتثالا لحكْمة «العقل السَّليم في الجسْم السَّليم»، إنما ليلْتمس من كرةَ القدم بعضِ العزاء، فهي مثْلُه تتلقَّى ضربات الموجعة منْ كل جانب، وحين يَهْرعُ إلى مُباراة كُروية برُوح تمزجُ الفجيعة بالفرح، إنَّما ليتَّخذها ذريعة كي يرفع أقوى شعارات الرَّفْض والغَضَبْ !

ماذا عساهُ يصْنع الشَّاعر والكاتبُ والفنَّان والمُفكِّر أو المُثقَّف عموماً، بقيَ وحيداً يُواسيه في كُل مكان ذبابٌ لا يُعوض غياب الشَّباب، أمَّا عني يَحْدُث أنْ أجْلس على حافَّة الشَارع بالمقهى، فَينْتابُني الشُّعور أنِّي أقف حيثُ ينْتهي العالم على شفير الهاوية، أُحاول بيْن رشْفة وأخرى، أنْ أسْتَمْتع بوقْتي على إيقاع الموت البطيء للدُّخان، ولكنَّني أفشل في الاحتفاظ بمُتْعة عيش هذا البُطء السِّحْري طويلاً، وكيف لا وكل مَنْ حولي أسْرَع في التَّلاشي من كل الأوقات المُهَرْولة بنا جميعاً، إلى حتْف قريب أو مُتأخِّر على المَقْصَلة، علْماً أنَّهم لا يُطَاردون سوى السَّراب الذي يَشْتَرُونه من الحكومات المُتعاقبة بأبْخَس الأصْوات، وأكثر ما يَشدُّني وأنا بِنفْس المقهى على حَافَّة الشارع، شيخ يزحف حَذراً بنصْف خطوة، كأنَّه لا يُريد أن يصل لشيء آخَر بعد أنْ وصل لنهاية الكوْن، أو كأنَّه بعد أنْ أنْفق كل العمرَ في الخدمة المدنيَّة بدون فائدة أو مائدة، أصْبَح خارج كل الإعْترافاتِ التَّاريخية غيْر مَعْنِيٍّ بالزَّمَنْ !

محمد بشكار
bachkar_mohamed@yahoo.fr

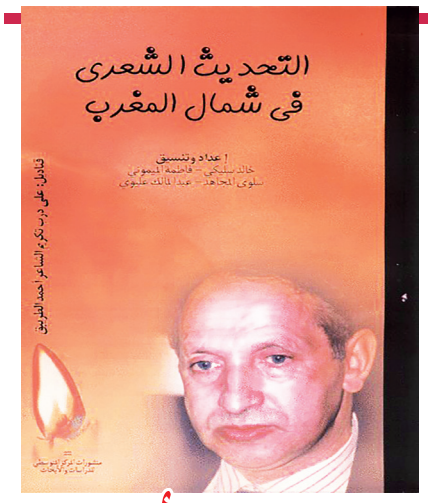

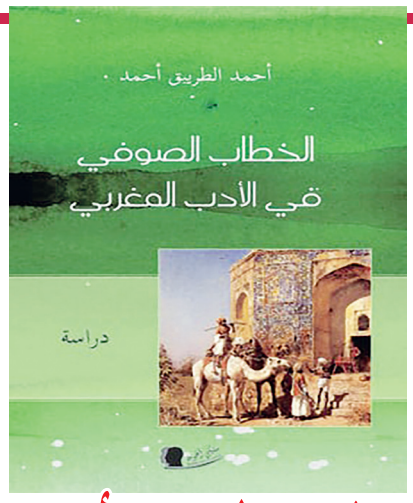

رحيل أحد رواد القصيدة المغربية الحديثة الشاعر أحمد الطريبق أحمد

المحتوم أن الشاعر يقضي حياته يصوغ من خلال ما يكتب من قصائد، عالما أجمل مما نحن فيه، كذلك صنع الشاعر الكبير أحمد الطريبق أحمد قيد حياته حين كتب:

أمامي بحرٌ / وسماواتٌ سبعْ ،
وكتابي لوحةُ نجمٍ : لألأةُ الفجرِ حواشٍ
وحروفٌ فيهْ ،
وخيالي متّسعٌ / لسؤال يَسَعُ الأكوانَ
ويختزل الحيرةَ في حيرتها.

هو الآن في تلك السماوات السبع، بعد أن انتقل إلى رحمة الله صباح يوم الأحد 15 يناير 2023 بطنجة، عن عمر يناهز 78 سنة، ويعتبر الطريبق رحمه الله أحد فحول القصيدة المغربية المتميزين، بصم بفرادته أثرا عميقا في المشهد الشعري المغربي، فهو من رواد القصيدة ذات المنزع الصوفي في الشعر المغربي الحديث إلى جانب ثلة من الشعراء الآخرين أمثال: محمد السرغيني، وعبد الكريم الطبال، ومحمد بنعمارة وغيرهم من الشعراء الذين أسهموا في حركية التحديث الشعري بالمغرب.

ولد سنة 1945م في حي المصلى من مدينة طنجة، وفيه نشأ وترعرع بين أزقته ومضائقه. وفي زوايا كتاب الحي بدأ الحرف القرآني وهو طفل، فحفظ القرآن الكريم في مكاتبه، ونستحضر حديثه عن تفاصيل الحفل الذي نظمه والده احتفالا بحفظه للقرآن الكريم، حيث قال « في بستان العرفان الذي كان يسقيه بدم القلب وعبير الروح، والدي رحمه الله وقد زرع في تربتي وفي رحابة نفسي بذور الوفاء، وطيب الاحتفاء، فأكرمني ورفعني رفعة القرآن الكريم، يوم أقام الاحتفال البهي، الحفيل، برسم ختمي للقرآن الكريم، وكان منه يومئذ وإلى يوم يبعثون، خطاب التمجيد للكلمة القرآنية المعجزة... وكان ذلك اليوم لي، خطابا بحروف نورانية، وقد أرسله كافة الحضور وحضار ختم القرآن، وجاؤوا وأقبلوا من كل حدب وصوب، يشهدون اليوم الحفيل، ويشاهدون أعراس القرآن الكريم، ومراسيم الطقس التقليدي التاريخي في تراث المغاربة أجمعين».

وتميز أحمد الطريبق أحمد بالخصوص بتجربته الشعرية الغنية مضمونا وفنيا، والتي ظلت مطبوعة بالبعد الصوفي إذ أن الشاعر تأثر بالمتن الصوفي (ابن عربي وأوراد الجزولي...) قبل أن ينهل من التراث الشعري العربي.

وظل الولع الصوفي يرافق الشاعر ليتكرس ضمن مساره الأكاديمي حيث أنجز أطروحته الجامعية عن (الكتابة الصوفية في أدب التستاوتي)، ويرى أحمد الطريبق أحمد أن كل شاعر هو صوفي في أعماقه، لأن الصوفي يتسامى بالرؤيا / الحلم وهي الشعر كله، كما يجمع بين الصوفي والشاعر الانشداد إلى حالة الجذب فكلاهما يتعرض لحالات البسط والقبض والوعي واللاوعي وغيرها من الثنائيات الموحدة بينهما، واللغة الصوفية نابعة من معين الإشارة وهي من مقدسات الشعر الحق.

وكان الشاعر والباحث أحمد الطريبق أحمد رحمه الله قد فاز بجائزة المغرب للكتاب في صنف الدراسات الأدبية والفنية عام 2008، عن كتابه «الخطاب الصوفي في الأدب المغربي، في عهد السلطان مولاي إسماعيل».

من ومن أبرز دواوين الشاعر أحمد الطريبق أحمد: «هكذا كلمني البحر" (1996)، «اهبطوا مصر.. سلاما سلاما» (2006)، «الحيات الستون: من الصورة إلى الوجود»(2007)، «...ومعراج الأشواق على براق يوسفي»، « و من أسمائها الحسنى طنجة لعاليا»، الأعمال الشعرية: مسار تجربة 1968-2010 (منشورات وزارة الثقافة،الرباط).

كما صدرت له العديد من المؤلفات في النقد الأدبي وأدب الرحلة، نذكر منها: «طنجة: الصورة الشاعرة: من الرؤية المماثلة إلى الرؤية المغايرة»(أنتولوجيا شعرية) /1995، التحديث الشعري في شمال المغرب، «الكتابة الصوفية في أدب التستاوتي (1045-1127 هـ): الحياة-الكتاب-الخطاب»، رحلة الإمتاع والمؤانسة من طنجة إلى ماليزيا وسنغفورة، من عدوة طنجة لعاليا .. إلى بحر الصين (كشفا عن محجوب واقتناصا لمرغوب)، حومة المصلي: لوح مسطور بحبر الزبيب وعبق الصلصال.

رحم الله الشاعر إنا لله وإنا إليه راجعون.

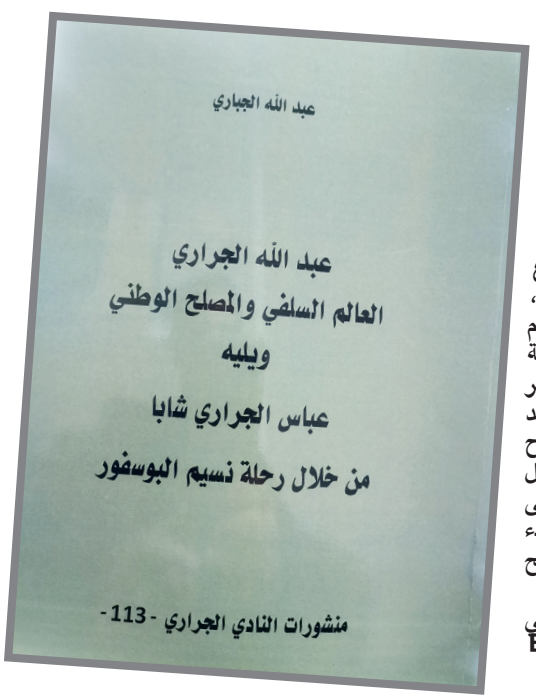

عبد الله الجراري .. العالم السلفي والمصلح الوطني ويليه

عباس الجراري شابا من خلال رحلة نسيم البوسفور

عبد الله الجباري

ضمن منشورات النادي الجراري للعدد 113 ، صدر أخيرا كتاب جديد لمؤلفه عبد الله الجباري يحمل عنوان «عبد الله الجراري .. العالم السلفي والمصلح الوطني، ويليه، عباس الجراري شابا من خلال رحلة نسيم البوسفور «.

يرصد الكاتب في هذا المؤلف دور ومكانة العلامة عبد الله الجراري في الحركة الثقافية المغربية في عصره، وبصمته فيها رغم ما يحيط عصره من حرج وفتن شديدة، لأنه عاصر الفترة الاستعمارية وما عرفته من محاولات حثيثة للمحتل الفرنسي بهدف طمس الهوية المغربية ثقافيا وأدبيا وتاريخيا ولغويا ودينيا، كما عايش فترة الاستقلال وما عرفته من تعثرات وإخفاقات ونجاحات.

ويشير عبد الله الجباري في مقدمة الكتاب أن «المغرب عرف في القرن العشرين عددا وافرا من رجالات الإصلاح، الذين بذلوا جهودا ملحوظة، وقدموا عصارة أفكارهم للإسهام في إنقاذ المجتمع والعمل على نهضته ورقيه، كل من زاويته، وقد تذرع كل واحد منهم بالوسيلة أو الوسائل التي وجد فيها ضالته، فمنهم من اتخذ العمل السياسي ذريعته إلى الإصلاح، ومنهم من استعمل مجال التربية وسيلة لذلك، ومنهم من توسل بالمقالة وجعلها أفضل ذريعة، لما لها من آثار سريعة، حيث تصل إلى أكبر عدد من القراء بجميع مستوياتهم، بخلاف الكتب والمؤلفات، وقد استعمل العلامة عبد الله الجراري لتحقيق النهضة والإصلاح المنشود وسائل متعددة، منها التأليف والمقالة والرواية والتمثيل المسرحي ودروس الوعظ المسجدي والإذاعي، إضافة إلى التدريس وإنشاء المدارس الحرة، كل هذا في سبيل تربية نشء مغربي أصيل معتز بهويته وأصالته وتاريخه وقيمه، ومنفتح على مستجدات العصر وتجارب الأمم.

يقع الكتاب في 161 صفحة من الحجم المتوسط، وطبع في نسخته الأولى سنة 2022، بمطبعة Edition Dar Assalam

العدد العشرون من مجلة «الصقيلة»

يحاور الشاعرة مليكة العاصمي ويستحضر الروائي الراحل إبراهيم الحجري

افتتحت مجلة «الصقيلة في النقد والإبـداع» عددها العشرين، الصادر عن منشورات «الراصد الوطني للنشر والقراءة»، بهذه العبارة: («هل توقفت مجلة «الصقيلة»؟ سؤال يتردد على لسان الكثير من المبدعين، والباحثين، والقراء الأوفياء، في حسرة كبيرة، عن توقف بوابة إعلامية شكلت خلال السنوات الأخيرة، إضافة نوعية للمشهد الثقافي، وأسهمت في إبراز الكثير من الأسماء الشابة في مجالي الإبداع والبحث العلمي، كما أسهمت في استحضار رموز الثقافة المغربية عبر الحوار و«مبدعون في الذاكرة»، واحتضان الأقلام الناشئة من تلاميذ وطلبة»). يقع هذا العدد الجديد في مئة وثلاثين صفحة، بباقة متنوعة من المواد الإبداعية والنقدية، تخللها حوار مع الشاعرة والباحثة مليكة العاصمي واستحضار أحد رموز الإبداع والنقد الأدبيين الروائي والناقد الراحل إبراهيم الحجري.

نقرأ في ركن في قسم إبداع: «قميص محمود درويش» للقاص الراحل محمد أنقار، «استعصاءات» لمحمد الشايب، «قصص قصيرة جدا» لعبد العزيز كصاب، «التائه» لأيوب قراو، «الزيارة» لعبد الهادي شفيق، «وليام بروز والغرفة والست طلقات» لإلياس الطريبق، «جواز سفر» للشاعر الراحل محمود درويش، «في رثائك أبت» لآمنة الجويلل، «البئر الخرساء» لعبد الجليل جابري، «مفتتح للقصيدة» لعبد الناصر الجوهري.

وفي قسم نقد وفكر نقرأ: «تجربة سعد الله ونوس المسرحية من تخوم النقد إلى رحابة نقد النقد سيرورة الإنتاج المعرفي في «المسرح والأمل» للناقد حسن يوسفي» ليوسف أمفزاع، «تجليات السخرية في قصص «أسماك لا تجيد السباحة» للقاص عبد المجيد رفيع» لرشيد أمديون، «شعرية الالتزام عند الشاعر محمد علي الرباوي» لعبد الغني الخلفي، «رنين الحلم في شعر جواد المومني قراءة في ديوان «ريثما يعترينني الحجر» للشريف آيت البشير».

وقد تضمن ملف العدد «خطاب السجن في السرد العربي» مجموعة من الدراسات النقدية: «خطاب السجن في السرد العربي قراءة في «ليال بلا قمر» لعبد الرحمن خواجا» للبتول محجوب، «خصائص كتابة الاعتقال السياسي: «كان وأخواتها» لعبد القادر الشاوي و«الزنزانة رقم 10» لأحمد المرزوقي» لمحمد دهاب، «الهوية سجنا: أزمة الذات وسطوة جغرافية الآخر السياسي قراءة في مذكرات «سنوات الرمل» لحماد البدوي» لياسين معيزو، «خطاب الألم في الرواية السجنية المغربية: «كان واخواتها» لعبد لاقادر الشاوي و«العريس» لصلاح الوديع» لجواد السراوي، «من سجن الجسد إلى سجن النفس والمجتمع قراءة في رواية «الحلم لي» لحليمة زين العابدين» لسناء حربول.

وفي الترجمة نقرأ: مقال «القارئ المتعاون» لدومنيك مانغينو، ترجمة: ميلود عرنيبة، قصيدة «آية سفر التكوين» لخوسيه مانويل كاباييرو بونالد، ترجمة: عبد اللطيف شهيد. كما نجد ضمن مواد العدد العشرين حوارا مع الشاعرة ولاباحثة مليكة العاصمي. وفي قسم مبدعون في الذاكرة تستحضر «الصقيلة» الروائي والباحث إبراهيم الحجري، بمشاركة: الحبيب الدائم ربي، عبد الحميد شكيب، عبد الله مرجان. وفي مشاتل -نصوص إبداعية للأقلام الناشئة- نجد باقة متنوعة من القصص والأشعار: «تنهيدة ألم» لحسناء البينة، «المجرم» لفاضل مساعد، «من القاتل..؟» لفاطمة الزهراء أوقسو، «المجهول» لساجدة موطيس، «طفل «يامنة» لفاطمة الزهراء ورشان، «كطائر حر» لسكينة الزازي، «أنامل الصمت» لحياة أترهنا، إضافة إلى باقة من الإصدارات الجديدة.

مجلة «أصدقاء ديونيزوس» في عددها التاسع

كيف نُفكرُ الفن الآن.. بين النقد والجماليات؟

صدر العدد التاسع من المجلة الإلكترونية «أصدقاء ديونيزوس» (يناير/ كانون الثاني **2023**)، التي يرأس تحريرها الشاعر والجمالي بوجمعة أشفري، وتضم في هيئة تحريرها الشاعرة والمترجمة رجاء الطالبي والتشكيلي والناقد الفني بنيونس عميروش والكاتب والناقد الفني أحمد لطف الله، وخالد بن الضو مستشارا فنيا؛ وتتشكل هيئتها الاستشارية من: الشاعر والمفكر أدونيس، الشاعر والكاتب عيسى مخلوف، الكاتب والفيلسوف موليم العروسي والكاتب والمفكر نور الدين أفاية؛ وهي مجلة تعنى بشؤون الفن والفكر.

جاء في افتتاحية العدد التي كتبها رئيس تحرير المجلة الشاعر بوجمعة أشفري، ما يلي:

«ما بين زمن «نهاية الفن» الذي أعلنه هيغل **Hegel** في كتابه «إستيطيقا» والزمن الراهن الذي أصبحت فيه وضعية الصُّورَة وضعية سائلة؛ سال الكثير من المداد حول الكتابة النقدية وَالبحث الجمالي والتفكير في الفن؛ علما أن هذا الفيلسوف تحدث عما سماه نهاية التاريخ، ولا يعني هذا المفهوم معنى الانقضاء ومن ثمة الزوال أو التوقف عن الحضور. بل كان يتحدث عما يسميه **la finalité** أي أن الفن بلغ هدفه **sa fin**، خصوصا مع الرومانسية التي يعتبر هيغل أكبر فلاسفتها.

فهل أصبح لزاما علينا طرحُ أو إعادة النَّظر في العلاقة بين ما يُنتَجُ «الآن» على أنه «فنٌ» وبين الحديثَ أو الكتابةِ (التفكير) عن هذا المُنْتَج الفني في الوقت الراهن؟...

وهلَ ما يسمى اليوم بالفن المعاصر يعيد النظر في رأي هيغل أو أنه يتموقع خارج دائرة الفن، ولذا فإنه يؤكد هذه النظرية؟

من هنا يكون سؤال التفكير في الفن الآن، بل النَّظرُ في الكيفيات التي يمكن نهجها لمقاربة (كتابة أو تفكيرا) ما يُنتَجُ فنيّا وما يطرحُهُ هذا المنْتَجُ الفنيَ من تعددٍ في الأشكال والصور.

ومن ثمة يمكن طرح سؤال: أيّ فنّ وأيّ نقد؟ ذلك لأنّ تَغَيُّر المعنى الثقافي يؤدي حتما إلى تغيّر معنى الإبداع نفسه ومن ضمنه الفنون التشكيلية. وهو ما يجعلنا نقول «إنَّ التقدم التقني والتكنولوجي لا يستقيم فعلا من دون تقدم على المستويين المعرفي والإنساني، وأنّ الجماليات والفنون والعلوم الإنسانية تساعد أيضا في مقاربة نوازع البشر وفهمها حتّى لا يصبح الإنسان نفسه فريسة تلك النوازع»...

ساهمت في كتابة مواد العدد التاسع أسماء إبداعية، فنية وفكرية من لبنان، سوريا، فلسطين، الأردن، مصر، تونس، المغرب، فرنسا، اليونان...، وجاءت أبوابه على الشكل التالي:

الملف: «كيف نفكر الفن الآن.. بين النقد والجماليات؟»

ساهم فيه كل من:

- طلال معلا: المتخيل الانزياحي - نقد ما بعد الآن.. اللغة والواقع؛
- عيسى مخلوف: محاصرة الفن بالمال؛
- هناء عبد الخالق: الخطاب الفني يبني فضاء تواصليا لمعنى الفن المعاصر؛
- احساينبنزبير: الفن والجماليات، حرب بَسوس؛
- سلوى العايدي: النقد الفني وأزمة المصطلح؛
- فاتح وأدونيس.. اليوم الثالث (حوار)؛
- عبد الرحيم كمال - أحمد لطف الله: خطاب الفن المعاصر.. نقد أم جماليات؛
- محمد أيت حنا: من منظور عصر النهضة إلى آفاق الفن المعاصر؛
- خليل قويعة: أي دور للمتلقّي في إنشائيّة العمل الفني و«حياة الأشكال»؛
- إيف ميشو - رجاء الطالبي: الأنا، التراجع واللاواقعية.

الضيف: موليم العروسي.. يقظة الفكر في الفن:

-محاورة أجرتها معه هيئة تحرير المجلة؛

-موليم العروسي: علاقة الفلسفة بالفن؛

- أحمد لطف الله: موليم العروسي مُفكراً جماليّا.

زووم: عادل السيوي.. الوجه ملعب كبير لحركة الروح:

-حوار مع الفنان، أجراه معه بنيونس عميروش؛

- عماد إرنست: عادل السيوي.. شهريار اللامعنى؛

-بنيونس عميروش: النديم المقيم في العين.

سرير(ة) الكتابة:

- سارة كوفمان - عبد السلام الطويل: الفن والاكتئاب؛
- إيروتيكايانيسريتسوس، تقديم وترجمة تحسين الخطيب؛
- جوزيف عيساوي: أربع قصائد؛
- مبارك الراجي: سيرة الخلخلة.

ملحوظة:

مجلة «أصدقاء ديونيزوس»، مجلة فصلية، تصدر بالدار البيضاء بصيغة «بي دي إف» (PDF)، يصمم أغلفتها الفنان خالد بن الضو.

عشرة أدباء يتحدثون

عبد الجبار العلمي

من أجمل الكتب التي قرأتها وما أزال أعود إليه للجلوس مع فطاحلة الأدب العربي ،وأُنْصتُ إلى الحوار الممتع المفيد بين الصحفي الناقد فؤاد دوارة وبين هؤلاء الكبار. وكان الكتاب المحاوَرون في الكتاب هم على التوالي : طه حسين . توفيق الحكيم . محمود تيمور. حسين فوزي. يحيى حقي. محمد فريد أبو حديد. عزيز أباظة. محمد مندور. فتحي رضوان. نجيب محفوظ.

8 ـ كان كتاب « عشرة أدباء يتحدثون » مرجعا أساسيا للعديد من الباحثين والأساتذة في إنجاز أبحاثهم ودراساتهم العليا في بعض الجامعات ومنها جامعة باريس. وأذكر هنا بالتحديد أستاذنا محمداً برادة في رسالته لنيل دكتوراه السلك الثالث الموسومة بـ « محمد مندور وتنظير النقد العربي « تحت إشراف الأستاذ المستعرب أندريه ميكل (1929 ـ 2022) التي تمت مناقشتها بتاريخ 19 يونيو 1973 ، و شارَك في لجنة المناقشة الأستاذ جمال الدين بن الشيخ)1930 ـ 2005) والأستاذ تْروبُو . وقد أحال الأستاذ محمد برادة في الجزء الخاص بحوار محمد مندور (1907 ـ 1965) على هذا الكتاب في صفحات عديدة من أطروحته بلغت عشر إحالات في الصفحات التالية (25 ـ 40 ـ 43 ـ 54 ـ 93 ـ 97 ـ 101 ـ 145 ـ 161 ـ 167).

لقد كان حوار الدكتور محمد مندور (1907 ـ 1969) غنياً ودقيقا ومعبراً بصدق عن حياته لدى دراسته بفرَنسا وبالمعارك الأدبية الَتي خاضها لدى عودته إلى مصر، ناهيك عن استعراضه للمؤلفاتَ النقدية في مختلف المجالات : النقد الأدبي قديما: « النقد المنهجي عند العرب « ؛ وحديثا دراساته في النقد الأدبي المعاصر في مختلف الأجناس الأدبية : «مسرح توفيق الحكيم» الذهني ؛ «مسرح شوقي» الشعري ؛ «الشعر الحديث في مصر « (3 أجزاء) ؛ « النقد والنقاد المعاصرون « وقد خصَّصَهُ لأبرز نقاد العصر أمثال حسين المرصفي والعقاد وميخائيل نعيمة وعبد الرحمن شكري والمازني ولويس عوض ويحيى حقي ؛ دراسات في « الأدب وفنونِه « و»الأدب ومذاهبه» يُعرِّفُ فيهما تعريف الأستاذ العالم بالفنون الأدبية وباتجاهاتها المختلفة عند الغرب : الكلاسيكية ـ الرومانسية ـ الواقعية ـ الواقعية الاشتراكية ـ الطبيعية ـ السوريالية ـ الوجودية ـ العبثية (مسرح العبث أو اللامعقول) ؛ قراءاته في الأدب العالمي باحثاً عن شخصيات أعمال خالدة في كتابه المتميز» نماذج بشرية» بمقدمة مركز مفيدة لزوجه الشاعرة ملك عبدالعزيز ـ وغيرها من الكتابات الصحافية ذات الطابع السِّجالي مثل كتابه «معارك أدبية« (كتاب الهلال) ؛ أما الترجمة فله فيها أعمال ذات قيمة سواء على المستوى الأكاديمي : ترجمته لكتاب لانسون في اللغة والأدب الذي ألحقه بكتابه الباذخ عن النقد العربي القديم المنوه إليه أعلاه، أو على مستوى ترجمة الإبداع، وأهم ما قام به في هذا المجال الترجمة الرائعة لرواية «مدام بوفاري» لفلوبير التي تعتبر أجود ترجمة لهذا العمل الروائي الذائع الصيت عالميا إلى لغة الضاد. وما أظن أن أي ترجمة لهذه الرواية ، يمكن أن تتجاوز هذا الإنجاز المتقن المكتوب بيراع أديب فنان، يُتقنُ اللغتين الفرنسية والعربية. أما «الشعر المهموس» ، فكانَ أول من نبه إليه ، ودرس بعضَ نصوصه القيمة ومنها قصيدة « أخي « لميخائيل نعيمة في كتابه النقدي « في الميزان الجديد». يعتبر الحوار الذي أجراه فؤاد دوارة في هذا الكتاب القيم ، أطول حوار وأغناه بالمعلومات والآراء والمواقف في كتابه (من ص : 169 إلى ص : 226). وقد تنبَّهَ الأستاذ الناقد المغربي محمد برادة إلى أهمية مُنجَز هذا الناقد الكبير ، فاختاره مجالاً لبحثه الجَامعي (دكتوراه السلك الثالثَ) كما تمَّتْ الإشارةُ إلى ذلك سابقاً ، ونشرهُ بعنوان « محمد مندور وتنظير النقد الأدبي « / ط1 ،منشورات دار الآداب ، بيروت ، 1979 . وقد كان الكاتب الصحفي المصري إيهاب الملاح مُحِقاً حين قال

من روائع كتب الهلال للإعلامي والناقد فؤاد دوارة 2-2

عن هذا الحوار : « كان حواراً تسجيلياً وتَأريخياً من طِراز رفيع؛ ولا أتصورُ مهتمّاً أو باحثاً أو دارساً لسيرة محمد مندور وأثره لمْ يتوقفْ عندَ هذا الحوارَ، ولَمْ يُفدْ منهُ؛ ولقيمَته وما قدَّمهُ من بيان وكشَف ليسَ لهما مثيل في حياةِ مندور .» (عشرة أدباء يتَحدثون ، أن تكون محاوراً ذكياً)، إيهاب الملاح ، مجلة الشروق ، الجمعة 6 مارس 2020)

9 ـ في حوار المؤلف مع فتحي رضوان (1911 ـ 1988)، يدور الحديث عن علاقة الأدب بالسياسة، باعتباره أحد الخائضين غمارَها إلى جانب ممارسته الكتابة الأدبية في أجناس متنوعة. من أرائه : « أن مجال النشاط السياسي والعمل الأدبي هو في حقيقة الأمر مجال واحد ، وهو حرية الإنسان. « ـ وأن الأديب لا يعلو قدرهُ إلا إذا كان له

موقف من السلطة في بلده ، وذلك بنقد سياستها ونظامها في الحكم،(انظر ، ص : 229) ، وأنه يؤمن بدور الكلمة في المساهمة في تغيير مصائر الشعوب ، إلى جانب الفعل ، وليس عبثاً أن تقول التوراة : « في البدء كانت الكلمة « (ص : 230). ثم ينتقل بهما الحديث إلى مرحلة النشأة في حي السيدة زينب ، حيث كان يقطن هنالك علي الجارم وتوفيق الحكيم ، ولا ينسى أن يذكر ارتفاع مستوى التعليم العمومي في مصر وجودته عهد ذاك. بعد المرحلة الثانوية يُحدث محاوره جواباً على أسئلته المركزة عن التحاقه بكلية الحقوق التي كان يؤمها معظم الحاصلين على البكالوريا ، وذلك لتحقيق أمنيته في أن يكون محامياً . وفي مرحلة دراسته بالكلية ، نشر بعض مقالاته في مجلة « المصري» لسلامة موسى .

كما يحدثنا عن التحاقه بالمحاماة ، إلا أنه انقطع إلى العمل السياسي في حزب « مصر الفتاة «، وتعرض خلال عمله الحزبي عدة مرات إلى الاعتقال. أما عن مصادره الأدبية والإبداعية ، فتتمثل في تأثره بالأدب الروسي وفكره ،وخاصة الروائي الكبير ليو تولستوي ، فقد استهواه منه الجانب الفلسفي ، لأنه يقوم على « فكرتين أو ثلاث هي: فكرة الحب وعدم العنف ـ القضاء على الملكية الزراعية ، أما الثالثة ، فهي الطهارة في العلاقات العاطفية « (ص : 242) ، كما تتمثل في أفكار غاندي الدَّاعية إلى المقاومة السلبية للاستعمار الإنجليزي. ولإعجابه بشخصيته، كتب عنه كتاباً سنة 1934 . ثم أخيراً يدور الحوار حول أهم جنس أدبي كتب فيه الكاتب وهو المسرح ، ومن المسرحيات التي يذكرها : « شقة للإيجار « ـ دموع إبليس ـ « عشر شخصيات تحاكم مؤلفاً « و» أخلاق للبيع « و «إله رغم أنفه « .وهذه المسرحيات كما يرى فؤاد دوارة تعالج قضايا فكرية تكاد تكون الامتداد الوحيدَ في أدبنا المعاصر للمسرح الذهني لتوفيق الحكيم. (ص: 249).

10 ـ ننهي جلساتنا الأدبية والفكرية مع عبقري الرواية العربية نجيب محفوظ وقد دار هذا الحوار قبل 23 سنة من نيله جائزة نوبل (سنة 1988) . كان غرض فؤاد دوارة تحقيق هدفين: ـ تكريم نجيب محفوظ بمناسبة بلوغه الخمسين من عمره / كونه بات يمثل وقتذاك قمة شامخة في الأدب العربي الحديث. يقول : « « هي قمة حية متطورة نستطيعُ أن نباري بها قممَ الأدب الغربي (ص : 266). وقد تحقق فعلاً ما قاله، فقد كان أول أديب عربي ينال هذه الجائزة العالمية، بل يضيف الكاتب إلى الهدفين السابقين هدفاً ثالثاً هو أن يقدم للقراء وللشباب المتأدبين قدوة تُحْتذى في الاجتهاد والمثابرة والعمل الشاق، فالقمم الأدبية السامقة لا تبلغ إلا بالكفاح المرير ، والقراءات الجادة ، والتثقيف الذاتي الدائم. يدور الحوار في هذا الحديث الشيق حول قراءات نجيب محفوظ الأولى في طفولته وصباه : الروايات البوليسية ـ مرحلة المنفلوطي و» ما أدراك ما المنفلوطي وأثره الخطير في تهذيب النفوس « (ص : 268) ـ مترجمات الأهرام ، وهي روايات تاريخية ـ بعد ذلك المرحلة التي يسميها نجيب محفوظ بمرحلة اليقظة المتمثلة في قراءاته لطه حسين والعقاد وسلامة موسى والمازني ، ثم بعد ذلك مرحلة قراءاته لتيمور وتوفيق الحكيم ويحيى حقي ، ويسمي الكاتب هذه المرحلة بمرحلة التحرر من السلفية ،والالتفات إلى الأدب العالمي . وفي حديثه عن مصادر تكوينه لا ينسى أن يذكر قراءاته في التراث العربي وقراءاته أمهات الكتب والمصادر المعروفة. في الجامعة درس الفلسفة وكان يعقد العزم على التخصص فيها . أخذ في الاطلاع على الرواية العالمية منذ سنة 1936 ، فقرأ لأشهر كتاب الغرب وأشهر كتب روسيا، والملاحظ أنه كان يزاوج بين القراءات الأدبية والفلسفية ، كما اهتم بالفنون التشكيلية والنحت والعمارة عملاً بنصائح العقاد وتوفيق الحكيم . (ص 282) . تطرق الحديث إلى مواضيع أخرى تتعلق بهوايته العزف على القانون ، وإلى تحمل عدة مسؤوليات وظيفية أهمها العمل في الرقابة السينمائية. والمعروف نجيب محفوظ ، كان يقرأ الأعمال الأدبية الكبرى في لغتها الأصلية : اللغة الإنجليزية أو الفرنسية. ويذكر أنه تأثر بالكتاب الذين أحبهم حد العشق : شكيبير وتولستوي ودستويفسكي وتشيكوف وبروست وابسن وغيرهم من الأدباء الكبار.أما الكتاب العرب ، فيذكر أنه تأثر بفكر سلامة موسى والعقاد وذلك لارتفاع هذا الأخير بالفن إلى مستوى الرسائل المقدسة (انظر : 286) ، ثم يُحَدِّثنا جواباً على أسئلة المحاور المتنوعة التي لم تكن تخضع لأي ترتيب أو نظام، بل كانت تصدر عنه بكيفية عفوية ، عن بدايات كتابته وتدربه عليها ، حيثُ كان يقرأ كتباً وَيُعيد كتابتها ، ثم يضعُ اسمه عليها باعتباره مؤلفها. بدأ كتابته بالمقالة قبل القصة والرواية. وكانت أولى روايته التي حظيت بالنشر هي رواية « عبث الأقدار « التي نشرها له أستاذه سلامة موسى سنة 1939 ، ثم نشر له عبدالحميد السحار «رادوبيس « ، ثم ألف روايتين أخريين هما «كفاح طيبة» و»القاهرة الجديدة «. ويذكر الكاتب فضل عبدالحميد السحار الذي حل مشكلة النشر سواء بالنسبة إليه أو غيره من أدباء جيله. وكانت رواية « القاهرة الحديدة « هي الرواية الأولى التي كان لها صدى في العالم العربي ، ثم « خان الخليلي « وزقاق المدق «. ويرجع نجيب محفوظ سبب استمراره في الكتابة إلى اعتباره الفن حياة لا مهنة (أنظر ص : 280) ، وإلا لتوقف عن الكتابة كصنيع صديقيه عادل كامل صاحب ارواية « مليم الأكبر» و أحمد زكي مخلوف مؤلف رواية « نفوس مضطربة « (انظر ص: 278 و 290).

وتجدر الإشارة إلى أمرين أثارهما المحاور في حديثه إلى نجيب محفوظ: 1ـ تأثره في كتابته الروائية بدراسته الفلسفة، ويتبدى ذلك في كثير من أعماله مثل «أولاد حارتنا « و» اللص والكلاب « / 2 ـ التزامه اللغة الفصحى في كتابة الحوار في رواياته وقصصه ، ويعتبر العامية مرضاً من الأمراض التي يعاني منها المجتمع ، فهو بالنسبة إليه مثل الجهل والفقر والمرض .. ويرى أن الذي وسع الهوة بين الفصحى والعامية عندنا هو عدم انتشار التعليم في البلاد العربية، ويوم ينتشر سيزول الفارق ... وأنا أحب أن ترتقي العامية ، وأن تتطور الفصحى لتتقارب اللغتان « (ص : 287). وكان هذا هو رأي طه حسين الذي كان ضد استخدام العامية .

ومن الجدير بالملاحظة أن حوار فؤاد دوارة مع نجيب محفوظ أثار أهم القضايا في تجربته الروائية إلى حدود سنة 1965. وقد توالت الحوارات في فترات متلاحقة أهما وأشملها كتاب « نجيب محفوظ / صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته» للناقد رجاء النقاش. يبقى أن نقول : إن هذا الكتاب صغير الحجم ، عظيم الفائدة ، قدم لقراء العربية صورة دقيقة الملامح عن عشرة أدباء ذوي شأن في أدبنا العربي المعاصر . واللافت لنظر القارئ أن فصول الكتاب تتفاوت في الطول ، وأن أطول حوار وأكثره غنى بما يقدمه من مواد أفاد منها الباحثون في دراساتهم الجامعية العليا، هو حوار الدكتور محمد مندور ، ويشتمل على 55 صفحة. وقد تمت الإشارة إلى كثرة إحالات الأستاذ محمد برادة على هذا الحوار في أطروحته لنيل الدكتوراه « محمد مندور وتنظير النقد العربي «.

الجائزة

عزيز أمعي

صوت ينسل إلى رأسي، تستقبله طبلتا أذناي رنينا واهنا، كصوت وليد جائع يحاول أن يوقظ أمه من النوم لتقلمه ثديها. يتقوى الصوت شيئا فشيئا. يصر على أن يسحبني من يم الوسن. بإلحاح حثيث استمر الرنين، أخيرا استيقظت. تركت حلما جميلا وراء ستارة نومي. رأيت نفسي في ذلك الحلم في مكان جميل مع قوم ينظرون إلي باندهاش وإعجاب.

كانت غرفتي لا تزال غارقة في الظلام على عكس حلمي المضيء بأنوار بلون اللجين البراق. عتمة الغرفة كانت دليلا على أن الليل لم ينته بعد، وأن النوم لا زال لي فيه حظ لو لم يبتكر الإنسان المتحضر الهاتف الخلوي. هذا البلاء التكنولوجي الذي يحرمنا من النوم، ويعكر على أغلب خلق الله صفو حياتهم.

مددت يدي بكسل أتحسس مكان هاتفي، وأنا ألعن بيني وبين نفسي هذا المتصل الذي أصر على إيقاظي من النوم، في مثل هذا الوقت. تأملت الهاتف كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحا، وكان اسم صديقي أحمد زميلي في العمل يتلألأ على الشاشة.

قلت بغضب:

- بالله عليك، هل هذا وقت يتصل فيه الأشخاص المتحضرون؟

ضحك غير آبه بغضبي، وقال:

-إذا عرفت السبب، بدل أن تغضب مني ستشكرني لأني بادرت بالاتصال بك.

نبرت:

-هل اندلعت الحرب العالمية الثالثة؟

واصل أحمد الضحك وقال:

- بل الأمر أخطر وأجل.

نط قلبي في صدري، وجلست في سريري وأنا أرتجف. تساءلت هل سيخبرني زميلي بما يجول في ذهني. سألته:

- ما الأمر إذن؟

رد:

- أخبرني أحد الأصدقاء أن روايتك تتواجد بالقائمة الطويلة لجائزة البوكر.

ساد الصمت، شعرت بقلبي يصعد إلى حلقي. حاولت أن أسأل صديقي هل هو متأكد مما قاله. لكن لساني خانني، ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة. أخيرا وبعد جهد جهيد سألته:

-هل صديقك واثق مما...

قاطعني:

-نعم

لم تكن الرواية روايتي. على الرغم من أنني أصدرتها باسمي. وبعد صدورها، اقتناها أغلب العاملين معي مفتخرين أيما افتخار بظهور روائي بين ظهرانيهم .

ما لا يعلم أي من زملائي هو أنني عثرت على مخطوط تلك الرواية بالصدفة في غرفة أحد الركاب على متن الباخرة التي كنت أحد بحارتها. الرواية الموسومة بـ «العنكبوت» لم تكن ممهورة باسم. حين اتصلت بالشخص الذي كان يقيم في الغرفة، وأخبرته عن المطبوع الذي عثرت عليه، نفى أي صلة له به. احتفظت بالرواية لمدة سنة، وحين لم أعثر لصاحبها على أثر، قررت نشرها باسمي. أرسلتها لإحدى دور النشر فتم قبولها،

وها هي تصل إلى قائمة الجائزة الطويلة لنيل جائزة البوكر، كما أخبرني صديقي.

تمتمت بكلمات خجولة مشوبة بالقلق، شكرت من خلالها صديقي على اتصاله، وعلى تهنئته. أنهيت المكالمة وبقيت جالسا في سريري أفكر. توقعت بعد هذا الحدث، أن يظهر صاحب الرواية ويفضحني في العالمين. مرت الأيام والأسابيع ولا أحد اتهمني بسرقة إبداعه. عشت أياما عصيبة لا تحتمل. رحت أدعو الله ليل نهار أن لا تتهور هذه الرواية وتصعد إلى القائمة القصيرة. لكن الله لم يستجب لدعائي، وظهرت الرواية اللعينة ضمن القائمة القصيرة، مما يعني أنها قد تفوز بالجائزة.

بين الفينة والأخرى، كانت تظهر مقالات لأدباء تشيد بالرواية. كنت كلما قرأت مقالا نقديا يمدحها شكلا ومضمونا أشعر بأنني ارتكبت جرما سيكتشف آجلا أو عاجلا، لتصبح فضيحتي بجلاجل على حد تعبير المصريين. هذا التنويه بدل أن يسعدني جعلني أتوتر وأنا أتخيل جسامة المسؤولية التي ستلقى على عاتقي في حالة الفوز. خشيت أن ينهار فجأة ما كانت تبنيه تلك المقالات من مجد للرواية وكاتبها المزيف الذي هو أنا . وساوسي كانت تنذرني بأنه قد يظهر في أي لحظة صاحب الرواية، ويكشف للكل بأنني سرقت منه روايته.

في ليلة ما قبل الإعلان عن الرواية الفائزة، لم أتمكن من النوم. بيضاء في الفندق الفاخر. الذي حجز للكتاب أصحاب روايات القائمة القصيرة. كنت الروائي الوحيد من بين الروائيين المرشحين للفوز، الذي يتمنى أن لا تفوز روايته بالجائزة.

منذ أن التحقت الرواية بروايات القائمة القصيرة، وأنا أشعر كأنني لص سيستولي دون وجه حق على عشرة آلاف دولار، المخصصة لروايات القائمة القصيرة. أما إذا فازت بالجائزة، فستصرف لي خمسون ألف دولار. تذهب إلى حسابي خطأ، وستنبري كل وسائل الإعلام للإشادة بالرواية وبي أنا كاتبها المفترض. سأجبر على حضور ملتقيات، وتوقيع الرواية، واستجوابات تلفزيونية لا حصر لها. باختصار قارئي العزيز ورطت نفسي بسبب خفة عقلي، وجشعي، ورغبتي في الشهرة على حساب صاحب الرواية الحقيقي. هذا الروائي اللعين الذي ترك روايته خلفه، ورحل كأنه امرأة حملت سفاحا، وحين وضعت مولودها فرت منه، حتى تتستر على جريمتها وتحملني وزر ما اقترفته من ذنب.

انتظار القرار الأخير للجنة التي ستعلن عن الجائزة الفائزة، كان أشبه بانتظار إصدار حكم بالإعدام في حق مسجون يأمل أن يفلت من حبل المشنقة. لكنني لم أفلت مع الأسف، وفازت الرواية ونالت قصب السبق .

في حفل تقديم الجائزة، كان هناك جيش عرمرم من الصحفيين، والأدباء، والكل يريد أن يعرف من هو هذا الروائي المغمور الذي أول ما شطح نطح، ونال أشهر جائزة أدبية في العالم العربي. تمنيت لو كان بإمكاني الفرار من الجميع، أو أن أتحلى بالشجاعة لأخبرهم أنني لست كاتب الرواية. بل لست كاتبا أصلا. لكن أنى لي هكذا شجاعة، وأنى لي الفرار وقد دخلت بمحض إرادتي إلى عالم لا علاقة لي به، وورطت نفسي في ما لا شأن لي به. نعم أنا مجرد بحار بسيط على متن سفينة. بحار تحول فجأة إلى لص أدبي، بعد أن عثر على رواية بالصدفة، وسولت له نفسه الطماعة أن يصدرها باسمه. ولتعاقبه الرواية على جرمه، أصرت أن تنال الجائزة.

بعد أن انتهت مراسيم الإعلان عن الفائز، وقراءة ورقة يتيمة عنه، ثم تقديم باقي الروائيين. سلمت لنا الشيكات وعلت التصفيقات، وجاء العديد من الحضور ذكورا وإناثا لالتقاط صور تذكارية معي.

اجتمع حولي العديد من خلق الله، وبدأت عدسات آلات التصوير ترسل بريقها اللامع لتخلد للحدث المتميز، الذي ستظهر صوره في مختلف المنابر المرئية والمكتوبة. فجأة لمحت فتاة جميلة شقراء الشعر تتجه إلى المنصة. بدلت جهدا كي تصل إلي. وقفت ملتصقة بي. ظننت أنها معجبة أرادت أن تأخذ صورة تذكارية معي. فجأة دنت مني، ثم همست في أذني:

-هنيئا لك الفوز بجائزة البوكر عن رواية لست أنت كاتبها.

وقبل أن أستيقظ من زلزال المفاجأة، غادرت الفتاة لتتركني مرعوبا مذهولا. حين انفض الجمع بحثت عنها في الفندق، فتشت في كل الأروقة ، وسألت عنها العديد من موظفي الفندق. لم يدلني عليها أحد. ولم أعثر لها على أي أثر.

عمل فني للنحات الأمريكي السوريالي مايكل ألفانو

أحمد لمسيَّح

كان يمكن

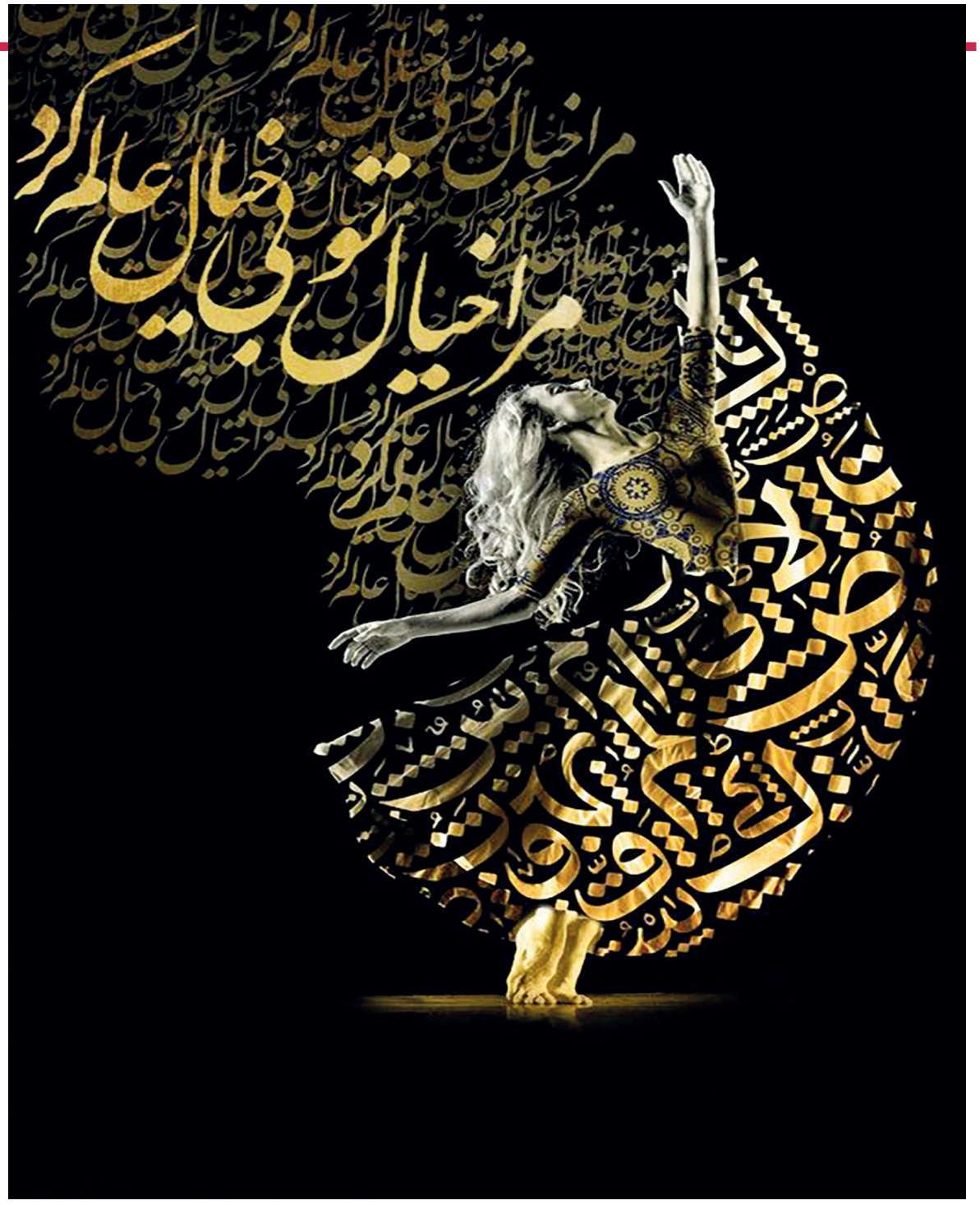

كان يمكن ... ويمكن
غادي يكون
انت عارفة وانا قريب
نعرف
احرافت طريقي لك
واعترت في بابك
النورسياج المكان
والحلم تدّاكر مع الخَيال
وقالو : خليها على اللّه
نسيت ظلي – كنجر فيه
يتعلم يرسى

.....

كان يمكن نكون اسم لشي وهْم
نغفل الديوانة ونصدق في الأندلس
مستور في الكتوبة
وشاد زهرة الغنباز نبتت في سوس واروات في
الريف
ونحطها – إيلا نجيت – بين يديك
ونهرب حشمان منك
حادر عيني وخا عليهم عْصابة السؤال
لكن حالف مانبقى كاين إلا بك
حتى إيلا محيتيني نبقى ظلك .

.....

كان يمكن نكون جملة في رسالة ونحركَ
تطير الطيارة وتجيب احماقي لك
يا تدفْنيه ... يا تخبّيه .... يا ترميه في
الفراغ
تخليه يعلموه الصوفية « جلال الفراغ «
وكيف يكون في مايكونش
احنى الراس واهرب يحلم
وما بغاش يصحى منك .

.....

كان يمكن « المتوسط « يعلم الحروف كيف
ترقص تحت اقدامك
باش تحلقي نور يهدي مركبي لك
سارح في حلمي وانت جيتي سحر في الغيبة
منارة وانا بحار تايه
علي نورك راني جثة بالحياة مساعفة
مدي صوتك يفيق فيَّ احماق خافية باش
نكون كي حكمتِ .
كنشوف وبقيت
واقف كنشوف ونحلم
(ماشي مشكل إيلا وليت اعمى)

.....

كان يمكن اللغز يبقى
يبقى للقصيدة هبالها
نتوهم أن دفايَ في الكتبة وحماقي في خيالها
كيف نسافر من الورقة للإنسان
وكيف نسافر من الإنسان للورقة
وتسمعي ظلي ينشد : تنبغيك
تنبغيك
ونقول أنا : كان يا ماكان .

عبد الغني أبو العزم

لا يعتبر فقط آخر المستشرقين الفرنسيين ، بل هو أيضا أديب وشاعر ، إنه صاحب رواية «ليلى ، آه يا عقلي» ، البروفيسور والمفكر الموسوعي «أندريه ميكيل» ، الذي ودع عالمنا يوم ٧٢ دجنبر ٢٢٠٢ عن عمر يناهز ٣٩ سنة ، لن نكتفي بخبر الوفاة كما تقاذفته سريعاً الصحف الورقية والإلكترونية السيارة ، لأن حياة فكرية بهذا الطول والعرض ، تستحق من الكلمات ، كمية تغلق كل ثقوب النسيان في الذاكرة ، وقد اقترح الأديب الأكاديمي اللغوي عبد الغني أبو العزم ، أن نطيل في عمر الذكرى بهذا البحث الذي سبق نشره في ملحق «العلم الثقافي» ، وفاء لأندريه ميكيل الذي استلهم أروع أعماله الفكرية واللغوية والأدبية ، من التراث العربي الإسلامي ، ونظرا لطول هذا البحث ، ننشر جزءه الأول في عدد اليوم ، على أن نكمل البقية في عدد الأسبوع القادم إن شاء الله ، يبقى أن نلمح إلى أن هذا البحث هو في الأصل ، عرض كان قد قدمه كاتب «معجم الغني الزاهر» ، في لقاء بمؤسسة علال الفاسي .

قراءة لكتاب محاورات بغداد* لأندريه ميكيل

1-1

لماذا هذا الكتاب بالضبط ؟ محاورات بغداد، أو محادثات بغداد، أو حوارات بغداد، ما الدافع لاختياره؟ في الواقع هناك دوافع متعددة، هناك ما هو موضوعيّ، ومنها ما هو ذاتيّ.

ما هو موضوعيّ يمكن إيجازه فيما يلي.

- أولا كوني هذه أول مرة أقدم فيها عرضاً بمؤسسة علال الفاسي، وتقديراً للدور الهائل الذي أسهم به أستاذي المرحوم علال الفاسي لتصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة لبعض المستشرقين حول الإسلام وعقيدته، أذكر بهذه المناسبة ما تلقيت على يديه برحاب كلية الآداب بفاس حول تعاليقه وانتقاداته، وردوده لما جاء في كتاب إكناز جولدزهير (IGNAZ GOLDZIHER) تحت عنوان العقيدة والشريعة في الإسلام من آراء وأفكار، تحتاج إلى تصحيح وتفنيد. صدر هذا الكتاب سنة 1959، ترجمه متخصصون، وعلماء فقه، وعلقوا عليه1، كتاب مليء بهوامش المترجمين، والتعليق عليه، فيما أخطأ فيه المؤلف من آراء، وعلى ما كان من سوء فهم لبعض النصوص، أو سوء الاستدلال بها، وعلى الرغم مما ورد فيه من تصحيحات، فإن أستاذنا علال الفاسي كانت لديه إضافات جديدة حول الظاهرة الدينيّة وعلاقتها باختلاف الظواهر الاجتماعيّة المرتبطة بها، وهذا ما حاوله أندريه ميكيل في مؤلفاته، وأكده في أغلب الأبحاث والدراسات التي تفرغ لإنجازها.

- الدافع الثاني، ومن أسباب النزول، أن الكتاب الذي أقدمه اليوم، يصب في تقديم الرؤية السليمة والعاشقة للإسلام، رؤية أكاديميّة ترتبط بماهية النصوص ودوافعها ووظائفها، أكانت دينيّة أم شعريّة أم أدبيّة أم فلسفيّة أم معماريّة أم جغرافيّة، نصوص تشترك فيما تقدمه من عطاء، وقدرة على تمثل الوقائع والأحداث التاريخيّة، وهو بذلك يختلف عن رؤى الكثير من المستشرقين.

- الدافع الثالث، هو أن هذا الكتاب آخر ما صدر للمؤلف أندريه ميكيل، وأشير هنا عرضاً أن ما ألفه قد بلغ ستين مؤلفاً، فضلاً عن مقالاته وأبحاثه المتعددة في الأدب والنحو واللغة والترجمة والجغرافية والرواية.

- الدافع الرابع، عامل ذاتيّ محض، لكون أندريه ميكيل أستاذي، ومشرف على أطروحتي للسلك الثالث، وقد ارتبطت به عشر سنوات متواصلة من دون انقطاع، خلال إقامتي بباريس، وعرفاناً بهذه العلاقة العلميّة، أود التعريف به، وهو غني عن ذلك، إذ تعلمت على يديه مبادئ البحث الأكاديميّ، والشغف به، فضلاً عن سلوكه ومعاملاته لطلابه الذين كان يعتبرهم أبناء له، ويرى فيهم مستقبل تطوير العلوم الإنسانيّة، والبحث فيها، على قاعدة الموضوعيّة، والنزاهة الفكريّة، ولقد كان بذلك قدوة عندي، لهذا اعتبر تقديم هذا الكتاب ما هو إلا أداء دين الأستاذيّة، أستاذ أحب الإسلام، وارتبط بأصول البحث الأكاديميّ الصرف، ولكونه هامة كبرى في مجال ما كان يعرف بالاستشراق، مع العلم أن هذا المصطلح لم يكن ليجد قبولاً لديه، فالرجل لا يعتبر نفسه مستشرقا، بل مستعربا، مؤكداً دفاعه عن تغيير هذه التسمية؛ وهذا ما ظل يلح عليه، وما أكده لي شخصيّاً في حوار أجريته معه، نشر في مجلة شؤون عربيّة التي تصدرها جامعة

الدول العربيّة، في أواخر السبعينيّات. وتسمية مستعرب جاءت بديلا لمستشرق، وتساير القرار الذي صدر عن المؤتمر العالميّ للمستشرقين بباريس سنة 1973، بعد مرور مائة عام على بداية عَقد المستشرقين لمؤتمراتهم الدوليّة، حيث اتفق على تغيير التسمية بـ المؤتمر العالمي للدراسات الإنسانيّة حول آسيا وشمال إفريقيا، وبذلك تم إلغاء مصطلح مستشرق وحذفه فيما يتعلق بالدراسات الاستعرابيّة المهتمة بالمناطق المذكورة آنفا.

يمكن القول، إن هذا القرار لم يكن في نهاية المطاف إلا ترسيخاً لتفاعلات ثقافيّة، وتداخلات فكريّة وسياسيّة خضعت للتحولات الجديدة داخل الحقل الاستشراقيّ التقليديّ، وهنا بالذات نجد التحول الهائل الذي دشنه أندريه ميكيل في هذا المجال، الهادف إلى تغيير مجراه الذي استمر زهاء قرن كامل، حيث بدأ يأخذ بُعْداً جديداً في منتصف القرن الحادي والعشرين إلى الآن.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن أندريه ميكيل كان أحد أعمدة هذا التغيير، هذا ما يبرز واضحاً في مجمل مؤلفاته ومساره العلميّ2، وما له علاقة مباشرة، أو غير مباشرة بكتاب محاورات بغداد.

اسمحوا لي أني لن أستعرض في البداية إلا بعض مؤلفاته، وأول مؤلف أود الوقوف عنده يعد في رأيي بلا منازع أضخم عمل في البحث الجغرافيّ عند العرب، يحمل عنوان: الجغرافية الإنسانيّة في العالم الإسلاميّ، جغرافيّة دار الإسلام البشريّة، وهو في أربعة أجزاء، يتناول هذا المؤلف الأكاديميّ مرحلة تاريخيّة من القرن التاسع، إلى منتصف القرن الحادي عشر، منطلقا من كتاب ابن خُـرداذبَـه المسالك والممالك، باعتباره أول جغرافيّ، لقد جاءت هذه البداية لتشكل وعي أندريه ميكيل بالمكان، منقباً طبيعة البلدان وخباياها وأسرارها الكامنة في هضابها وجبالها وسهولها، وفي ارتباطها بساكنيها، وأحوالهم الاجتماعيّة والثقافيّة، وما يحيط بها من عادات وتقاليد، في ضوء أساليب عيشهم وإرثهم الحضاريّ.

نحن في الواقع أمام مؤلف موسوعيّ في المجال الجغرافيّ والتاريخيّ، يحيط بأدق التفاصيل والجزئيّات التي نادراً ما يتم الانتباه إليها. وهذا ما تعبر عنه أجزاؤه الأربعة.

- ج I الجغرافيّون والجغرافيّة الإنسانيّة في الأدب العربيّ منذ النشأة إلى عام 10503.
- ج II تصوُّر الأرض والغريب4.
- ج III الوسط الطبيعي5.
- ج IV الأشغال والأيام6.

تشكل هذه الأطروحة الأكاديميّة في المجال الجغرافيّ مدونة شاملة لنصوص الجغرافيّين العرب، إذ تبرز رؤاهم للعالم، أراد من خلالها أندريه ميكيل حسب تعبيره، تطبيق ما يسمى بتاريخ الذهنيّات المهتمة بالمعيش اليوميّ.

وأشير هنا باقتضاب إلى باقي مؤلفاته التي من بينها:

- الأدب العربيّ7.
- أسامة بن منقذ من خلال كتابه الاعتبار الذي يسرد ذكرياته زمن الحروب الصليبيّة، 19838.
- العرب والإسلام وأوروبا، 19919.
- أدب العشق، المجنون وليلى، الحب الجنونيّ، 198410.
- العرب والحب، 200011.
- ليلى عقلي، 198412.
- حكايات ألف ليلة وليلة، بالاشتراك مع جمال الدين بن

الشيخ13، وهو يتضمن قراءة جديدة وترجمة أدبيّة لليالي، في أفق إعادة الدفء إليها. وقد صدرت أجزاؤها الأربعة اتباعاً، 1991-1996-2001. وقد نَظَر لكل ذلك في كتاب مستقل تحت عنوان غريب وعجيب، صدر سنة 197714.

- نساء بغداد، بالاشتراك مع Claude Bremond، 199015.

ومن بين مؤلفات أندريه ميكيل الإسلام وحضارته، الصادر سنة 196816، وفيه يقدم صورة متكاملة لمظاهر الثقافة الإسلاميّة في بعدها الإنسانيّ، ولا يقف هذا المؤلف عند سرد التاريخ، فهذا تحصيل حاصل، بل يسعى بشغف إلى إبراز الإسهامات وعطاءات الإسلام، وما قدمه للحضارات الإنسانيّة من إشعاع حضاريّ ودوليّ.

ما يميز كتاب الإسلام وحضارته يتجلى في شموليّته وكليّته، ورؤيته الثاقبة، للإحاطة بكل مظاهر الإسلام، مستقصياً بداياته، وركائزه، وانتشاره في مجمل البلدان التي وصل إليها، حيث لا يقف فقط عند العقيدة الإسلاميّة وأسسها الفكريّة، بل يسلط أيضاً الأضواء على مجمل الشعوب التي استوعبت القيم التي جاء بها الإسلام، وكيف أسهمت في تطوير حضاراتها، وأساليب عيشها في مجال السياسة وأنظمتها، وكيف تمكنت من التكيف معها.

أكتفي بهذه المؤلفات، لكونها شكلت الأسس الفكريّة التي اعتمدها أندريه ميكيل للنظر في حضارة الإسلام وجغرافيّته الإنسانيّة، مقتنعاً بأصالتها، وما أضافته للفكر الإنسانيّ. لقد تحكمت هذه الرؤية في كل مؤلفاته وترجماته، بدأ من ترجمة كليلة ودمنة17، وألف ليلة وليلة، وأشعار مجنون ليلى، ونهاية بترجمة أشعار بدر شاكر السياب18، وهذا ما برز في كتاب محاورات بغداد من حب وشغف بمرحلة عصر الأنوار التي شكل المامون محاورها الأساسيّة من سنة 198 هـ/ 813م إلى سنة 218 هـ/ 833م، وهي الفترة التي تعد من أزهى العصور علماً وثقافة، من حيث الرؤية والطموح، والرغبة الهادفة إلى خلق الشروط الموضوعيّة للإنتاج العلميّ، والتجارب التطبيقيّة والأدبيّة، ومن خلال الانفتاح على الآخر، ومعرفة معارفه، وهذا ما يفسر كل التوجهات الرامية إلى نقل العلوم التطبيقيّة والفكريّة والفلسفيّة إلى اللغة العربيّة، حيث ستتحول هذه اللغة إلى أداة حضاريّة عابرة للأقاليم والأقطار، لتتم عملية الترجمة مجدداً بواسطتها إلى اللغة اللاتينيّة. وكل هذه التوجهات تمت في إطار بيت الحكمة الذي أنشأه من قبل هارون الرشيد، ودعم صرحه المامون عام 830م، وقد صار من أكبر جامعات عصرها، وأضحى قاعدة للحوار بين الحضارات وتصوراتها، ومعلمة للبحث ودراسة العلوم والرياضيّات والفلك والفلسفة والمنطق والطب والطبيعة.

وتكفي الإشارة هنا لبعض المنجزات، منها اختراع أول أسطرلاب، وتوافق علماء عصره للقيام بمحاولة قياس محيط الأرض، مما يعد اعترافاً بكرويتها.

لا مناص من القول، إن مقدمة الكتاب التي وضعها أندريه ميكيل لـ محاورات بغداد، تكشف عن إغراءات الإسلام القابعة في ذاتيّته، ومن خلال ما تزخر به من معلومات، ومعطيات وأخبار، ومواد تراثيّة منبثة في المؤلفات والمصادر العربيّة والفارسيّة، ونظراً لما ضمّنته مقدمة الكتاب من أبعاد دلاليّة. حيث لم يتردد لحظة في البوح بها، أود في البداية أن أنقل بعض فقراتها حرفيّاً لأهميتها.

1- «مر خمسة عشر قرناً منذ دعوة محمد للإسلام، حيث بدأ مع هذه الدعوة تاريخ جديد للشرق. أمر جديد ومثير للغاية. بعد قرن من ولادته، امتد الإسلام على شكل إمبراطوريّة من إسبانيا إلى آسيا الوسطى، وباكستان حالياً، ولا يمكن عدم التساهل بخصوص هذا الظفر الكبير، وأسبابه بالنسبة للمؤمنين، الأمر بسيط، ويرجع إلى الطموح الذي يكون لدى الفاتحين الأقوياء بإيمانهم، دون أن نَغْمِط هذا الدليل والبرهان حقه، فإن التاريخ يأتي له مُعزّزاً مؤيِّداً.

2- أما ما يتعلق بالدين، فالإسلام قد جاء يدعو لوحدة الله، ورسالة نبيه خاتم الأنبياء، وأخيراً الدور الكبير للعرب، ولغتهم الحاملة للوحي، والداعية إليه.

وبناء عليه، فالقرآن، الكتاب المقدس، لم يعارض لا المرتبة العالية للمسيح، ولا عذريّة أمه.

3- عززت كل من الانتصارات العسكريّة، وعبقريّة بعض الرجال الاستراتيجيّة، والظروف الملائمة التي توفرت لبعض المجتمعات المتأزمة ضد القسطنطينيّة، ولكن أيضاً ما حدث في إيران، بروز فضاء جديد، إنه فضاء الإسلام المحدِّد اجتماعيّاً بالمساواة بين المؤمنين.

4- هذا الفضاء الإسلاميّ الذي كما قلت، لم يكن فيه العرب وحدهم، فقد كان هناك قبلهم آخرون، يقومون بما يلزم لضمان استمرار الغارات، ومُدِّدين بذلك ببساط الدين الجديد ولغته، هذه اللغة التي إن لم تكن قد قضت قضاء مبرماً على الفارسيّة والأمازيغيّة، وبعض الرطانات الليبيريّة أو التركيّة، وإن اكتفينا بهذه النماذج فهذه اللغة العربيّة كانت على الأقل قد سيطرت على المحيط المتوسطيّ، وكذلك على النخب والمبادلات التجاريّة.

5- اتخذ الانفتاح على العالم في عهد العباسيّين أشكالاً جديدة بازدياد كثافة المبادلات التجاريّة على الصعيد العالميّ، ولكن كذلك بفضل بزوغ ثقافة منفتحة منذ ذلك الحين على الترجمات للأعمال الهنديّة والفارسيّة، وعلى الخصوص اليونانيّة (الإغريقيّة).

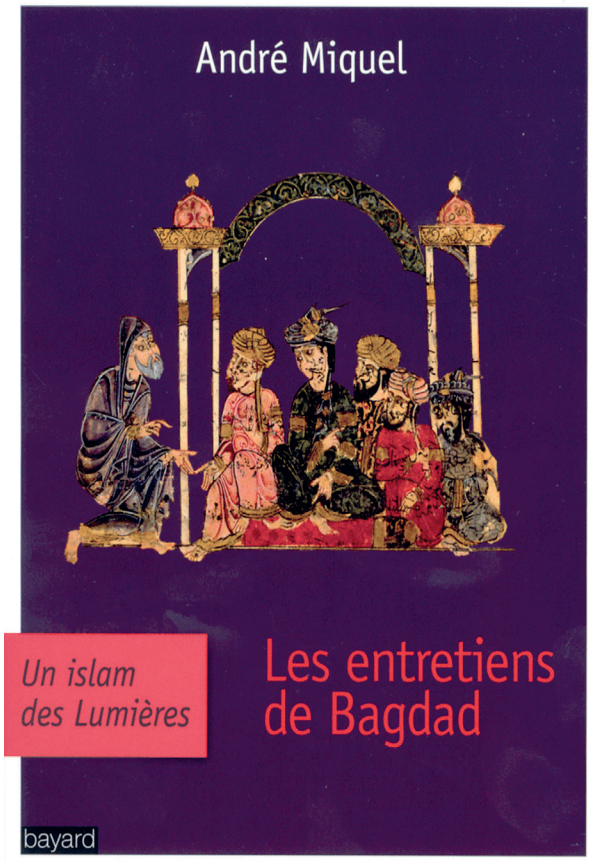

سوف يسفر هذا المناخ الجديد عن تطور كبير غير مسبوق في الفلسفة والعلوم، وعلى رأسها الطب الذي استفاد منه الغرب الوسيط، وسيسفر هذا المناخ أيضاً عن أدب ولغة سيكون لهما في الغرب احتفاء كبير، ووضع دوليّ.

6- لا أحد يعبر بالصورة الأمثل عن هذه المغامرة الكبيرة أكثر من الخليفة المامون الذي حكم من سنة 198 هـ 813م إلى 218 هـ 833 م».

كانت هذه الفقرات المترجمة ترجمة حرفيّة وأمينة، تعبيراً عما يريد أن يعبر عنه أندريه ميكيل، ويخالج صدره، والمقدمة على قصرها تضعنا أمام مقاربتين فكريّتين أساسيّتين:

أ - مقاربة تطور الرؤية الاستعرابيّة الأكاديميّة، من منظار علميّ موضوعيّ، رؤية الاعتراف بما أسداه الفكر الإسلاميّ للحضارة الإنسانيّة في شموليّتها، بعيدة عن مجمل الأطاريح الاستشراقيّة المغرضة في بعض كتاباتها.

ب - مقاربة فكر أندريه ميكيل، واستمراريّة علاقته المغرية في عشقها لقضايا الإسلام واللغة العربيّة وآداب نصوصها، شعريّة أم نثريّة، إنها خلاصة تجربة طويلة، دامت أزيد من نصف قرن، ومازالت مستمرة في عطاءاتها.

تعد مقدمة الكتاب بهذا المنظور مفتاح أسراره المرتبطة بالفكر الإسلاميّ، أي منذ قراءته لترجمة سافاري (SAVARY) للقرآن19، وهو في ريعان شبابه، الخطوة الأولى لارتباطه بعالم العرب والمسلمين، من الخليج إلى المحيط.

هوامش:

* André Miquel, Les entretiens de Bagdad, Un islam des lumières, éd. Bayard, Paris, 2012.

1- إكناز جولدزهير، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة : محمد يوسف موسى، رئيس قسم الشريعة الإسلاميّة بكلية الحقوق جامعة عين الشمس، القاهرة، وعلي حسن عبد القادر، أستاذ بكلية الشريعة بالأزهر، وعبد الغني عبد الحق مدير المركز الثقافي بأكرا، غانا. أعادت منشورات دار الجمل طبعه، 2009، بغداد، بيروت.

2- من هو أندريه ميكيل ؟

- مستعرب فرنسي، ولد سنة 1929، وهو البالغ من العمر الآن 84 سنة أطال الله عمره.
- خريج المدرسة العليا للأساتذة، 1950-1953.
- حاصل على شهادة التبريز في مادة النحو.
- التحق بالمعهد الفرنسيّ للدراسات العربيّة بدمشق، 1953-1954.
- كلف بمهمة في إثيوبيا.
- عين أستاذاً بثانوية باسكال في كليرمون فيرون.
- التحق بالسلك الديبلوماسيّ، كي دورسي (quai d'orsy) سنة 1957 إلى غاية سنة 1961.
- كلف بمهام الشؤون الثقافيّة لمنطقة إفريقيا وآسيا.
- التحق بالسفارة الفرنسيّة بمصر كمكلف بمهمة ثقافيّة.
- بعد عودته إلى فرنسا، قرر أن يضع حداً لطموحه الديبلوماسيّ، حيث قرر التفرغ للبحث والأدب والكتابة والترجمة؛ وهنا سيبدأ مساره علميّاً، إذ عين أستاذاً للغة العربيّة وآدابها بجامعة إكس بروفانس من سنة 1962 إلى سنة 1964. ثم التحق بعد ذلك بالمدرس التطبيقيّة للدراسات العليا، من سنة 1964 إلى سنة 1968 حيث تخصص في دراسة الجغرافيّين العرب، وتفرغ لإنجاز أطروحة الدولة في الآداب، تقدم بها سنة 1967.
- عين أستاذاً بجامعة فانسان، ثم عين أستاذاً بجامعة باريس الثالثة، ابتداءا من سنة 1970 إلى سنة 1976.
- عين أستاذاً كرسيّاً بكوليج دو فرانس للغة العربيّة وآدابها، خلفاً للأستاذ جاك بيرك. وظل يشغل هذا المنصب إلى غاية سنة 1979، وتحمل في آن واحد مسؤوليّة المحافظ العام للمكتبة الوطنيّة، 1984-1987.
- يتقن اللغة اللاتينيّة واليونانيّة والألمانيّة، فضلا على إلمامه باللغة العربيّة.
- أنجز خلال مساره العلميّ أزيد من 60 كتاباً ما بين تأليف وترجمة.

3- La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle, tome 1 : Géographie et géographie humaine dans la littérature arabe des origines à 1050, 1973, réédition Editions de l'EHESS , coll. « Les réimpressions », Paris, 2001.

4- La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle, tome 2 : Géographie arabe et représentation du monde : la terre et l'étrange, 1973, réédition Editions de l'EHESS , coll. « Les réimpressions », Paris, 2001.

5- La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle, tome 3 : Le milieu naturel, 1980, réédition Editions de l?EHESS , coll. « Les réimpressions », Paris, 2002.

6- La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle, tome 4 : Les travaux et les jours, Editions de l'EHESS , coll. « Civilisations et sociétés », vol. 78, Paris, 1988.

7- La Littérature arabe, Editions PUF, « Que sais-je », Paris, 1981.

8- Ousâma, un prince syrien face aux croisés, les inconnus de l'histoire, éd. Fayard, 1986.

9- Les Arabes, l'islam et l'Europe, Paris, éd .Flammarion, 1991, avec Dominique Chevalier et Azzedine Guellouz.

10- Majnûn et Laylâ, l'amour fou, en coll. avec P. Kemp, éd. Sindbad, 1984.

11- Les Arabes et l'Amour anthologie, coll. avec H. Hadjadji, éd. Sindbad-Actes Sud, 2000.

12- Laylâ, ma raison, éd. du Seuil, 1984.

13- Les Mille et une Nuits, éd. Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 2005, traduit avec Jamel Eddine Bencheikh.

14- Un Conte des mille et une nuits, Ajîb et Gharîb, éd. Flammarion, 1977, voir aussi, Sept contes des Mille et une Nuits, éd. Sindbad, 1981.

15- Les Dames de Bagdad, conte des Mille et une Nuits, Desjonquêres, 1991.

16- L'Islam et sa civilisation (VIIe-XXe siècle), éd. Armand Colin, coll. « Destins du monde », Paris, 1968, ouvrage couronné par l'Académie française, 7e édition revue et corrigée, avec la collaboration d'Henry Laurens, 2003.

17- Ibn Al-Muqqaffa', Le livre de Kalila et Dimna, Paris, éd. Klincksieck, 1957; réédition : 2012.

18- Le Golfe et le Fleuve, poème de Badre as-Sayyâb. éd. Sindbad, 1977.

اختزال المساحة وإحداث أسلوب جديد في الخط

قراءة في معرض «تلاحين الخط» لسمو الشيخة خولة بنت أحمد بن خليفة السويدي

د. محمد البندوري

شكل المعرض الفردي «تلاحين الخط» الذي أقامته سمو الشيخة خولة بنت أحمد بن خليفة السويدي بأبو ظبي، مرحلة انتقالية هامة في تاريخ الخط العربي، وذلك قياسا بما قدمته من جديد فني، إذ عبرت بمفردات لغتها التشكيلية الخصبة بنماذج حروفية وأشكال فراغية، من نسيج مجالها المنمق وإبداعها الخطي المتفرد، فقد نسجت فضاء يعج بطقوس تعبيرية دائمة البناء والتكوين، بإضفاء عناصر فنية جديدة وأشكال مغايرة للمألوف. كما قدمت نسيجا خطيا تركيبيا استحوذ بشكل كبير على معظم المساحة بأشكال ورموز وعلامات ذات تعددية شكلية متناسقة، وفق مفارقات لونية تعبيرية، وتقنية عالية، تفصح عنها الاستعمالات الحروفية واللونية والخامات، وهي تبرز قدرتها التحكمية في الفضاء، وتنم عن عبقريتها في صنع منجز خطي متكامل. كما أن الربط بين العناصر المكونة لأعمالها، والربط بين مجموعة من العناصر المتباينة، والاستخدامات التحولية، وبسط نوع من الانسجام بين الكتل الخطية والأشكال الجديدة، تشكل في مجملها بعدا فنيا وقوامة جمالية وتجاوزا صريحا للجاهز، وصيغة جديدة لتحديث الأسلوب الخطي والحروفي على نحو من الإبداع والابتكار الذي يقود إلى عوالم توجّه المسالك التعبيرية. فإن كانت تتخذ من الحروفيات مادة أساسية لبعث الجديد، فإنها في الآن نفسه تروم عملية تشكل البناء الفني عبر المادة الأدبية والشعرية الفصيحة والنبطية، قياسا بأهمية الحرف في تحديد المكونات الأسلوبية ذات القيمة الأدبية والفنية التي تكتنز العديد من الدلالات البصرية التي تحتمل التأويلات الجمالية المتعددة. فسحرية الشعر، وسحرية الخط تتجسدان في عملية التثبيت المحكم والمنظم داخل الفضاء، باحترام منطقي للأشكال والألوان ومختلف عمليات التركيب الخطي، وهو ما يحيل إلى أن مختلف التوظيفات الجمالية واختزال المساحات والنقط والخطوط والشكل وتصبيب الألوان وعملية التنظيم الفارقي؛ كلها عناصر تدعم القاعدة الفنية للعمل الحروفي التشكيلي المعاصر. وبذلك، يتميز معرض «تلاحين الخط» ببصمة فنية وثقافية، خاصة في التشكيل العربي، حيث تناغمت الأعمال الخطية مع إيقاعات الحروفيات والزخارف الخفيفة، وامتزاج الخطوط العربية بأساليب التشكيل المعاصر. فشكل ذلك إحداثا جديدا اتجهت به نحو التعبير بخطوط ذات حركات فنية وجمالية تبسط أشكالها بأقل كمية ممكنة في الفضاء. وبذلك ففي المنظور النقدي، يبدو أن القاعدة التشكيلية لديها هي فن خطي وحروفي تحقق به أشكال جديدة تطلق من خلالها سراح الحرف، وتجول به في الفضاء على نحو من الابتكار والتجديد. فهي تبدع في الخط، وتنوع في الشكل، وفي الكثافة والتموقع، وفي التركيب أفقيا وعموديا، علويا وسفليا، داخل الفضاء. وهي مكونات تطبقها وفق مشروعها الخطي والحروفي بقدر ما تستدعيه المادة الفنية من جماليات فاتنة. وهذا من مميزات الخط في التشكيل العربي، فضلا عن العلاقة بين جماليات الخط وجماليات التشكيل والتعبير. وفي هذا المنحى نجد نوعا كبيرا من التوازن الإبداعي في معرض «تلاحين الخط» الذي يعج بالإيقاعات السمفونية التي تنتج عن التوليف المحكم بين مختلف المفردات الفنية والعناصر الحرفية بأشكالها المتنوعة. إذ وصل الحرف في إطاره الرمزي المجرد إلى قيمة فنية بذاته، وقيمة جمالية في نسيج الحروف المركبة، ليحدث موسيقى غنائية خفيفة وتلاحين خفيفة. وهو ما تؤكده الأعمال الخطية من خلال إيقاعات الحروف بألوانها المتناسقة، وخطوطها الباسقة، وأشكالها الفارهة، وبإيقاعاتها وتبادلاتها واسترسالاتها ونسبها وتقويساتها.. بصيغ جمالية إبداعية صرفة، وفق عملية التجويد التي تتطلبها المرحلة الفنية المعاصرة. - وليس هذا التحليل اللطيف من عشقي للحرف- وإنما لأن الحرف العربي يشكل قيمة تعبيرية بامتياز، يتحول من الجديد إلى الجديد، بطرق مغايرة للأشكال السائدة. وهذا ينطبق على هذا المعرض، حيث إن ما يحتويه يدخل ضمن المنطق الجمالي والفني، حولته سموها بطريقة إبداعية إلى أشكال دلالية، تحمل مفرداتها الفنية أبعادا فلسفية ورؤيوية خصبة في التعبير، تشكل هي الأخرى قيمة أساسية في تشكيل الفضاء.

وقد تأتى هذا، عن طريق تطويع الحروف والأشكال بجرأة إبداعية تنم عن بلاغة فنية، وقدرة ابتكارية، ومرونة في التفاعل مع مختلف الأشكال التعبيرية الحرفية واللونية، ومع المساحة وكيفية تدبير الفضاء التشكيلي، ليضحى قيمة جمالية. وبذلك يحمل معرض تلاحين الخط خصائص فنية وجمالية متفردة، وذلك ناتج عن استلهام قويم من عناصر الفن كل الغايات الإبداعية المعاصرة، ومن جماليات الخط مختلف تركيباته واسترسالاته وتدويراته وكل أساليبه الموسيقية التي تزرع الحركة في اللوحة الخطية والحروفية. فهذا إدراك عن وعي، سياقات عمليات توظيف النقطة والحرف والمساحة واللون، لنسج الإبداع الفني في الحرف أدبا وشعرا وخطا، فتظهر الجماليات في نسق حسي بديع. وهو ما يجعل هذا الغنى الفني يتحقق في لغة حروفية أيقونية دالة على مرامي كثيرة من التعابير، التي تبرز مجموعة من العلائق بمظهر قيمي في المشهد الحضاري الإماراتي والعربي، وفي الوعي الفني باعتباره أسمى قيمة ترسم أنبل الأهداف، برمزية حضارية، ومقطعية خطية تغذي التجربة العربية الفنية الجمالية بتعدد اتجاهاتها، بقدر ما تشكله التقنيات العالية من غنى فني وجمالي، وما يشكله الحرف في هذا المعرض من أنساق تشكيلية. وهذا يتأتى وفق مشروع فني يلتئم فيه الخط والشكل واللون والأدب والشعر، بما يؤدي إلى توظيف مفردات الثقافة الحروفية العربية، وبما يجعل حضور الخط العربي قويا ضمن تموقعات الفن الحروفي العالمي الذي يروم الجديد. ما يمكّن القارئ أو الناقد أن يستشف الجماليات المختلفة للفن الحروفي بدءا من الحروف في تلاحينها وفي صيغها الجمالية، داخل النسق الفني التعبيري البديع، الذي تتبدى فيه مختلف التفاعلات التي تشعر القارئ بالقدسية، في سكون وصمت، وفي حركة وموسيقى بصرية. إنها صورة تؤكد أهم مناحي الجمال داخل فضاء معرض تلاحين الخط. وإنه كذلك مسلك جمالي في هذا الأسلوب الفني، الذي يتم التعبير من خلاله بمفردات سمفونية أحيانا، وبلغة تشكيلية حينا آخر، تؤدي إلى نسج عالم منمق بديع بطقوسه الحروفية المتداخلة والمتفرقة. وهو في الواقع النقدي إشارة إلى تشكيل الحرف وفق قيم فنية وجمالية، وإحداث الجديد في الخط العربي، بتشكيل نسق حسي بصري.

فسمو الشيخة خولة تتوفر على إمكانات تقنية هائلة، وعلى قدرات فنية عالية، وعلى مؤهلات ثقافية كبيرة، تستثمرها في تشكيل الحروف والتعبير بالأسلوب الخطي الذي تبعث به الجديد الفني، فتتبدى تعبيراتها غاية في الإبداع والجمال، تتنامى وتزيد جمالا بين الحين والحين. ويتضح أن هذا التأطير يأتي في سياق التجديد الفني، وفي نطاق التصورات الجمالية التي تقارب بها ماهية الشكل الفني بالشكل الخطي والحروفي الممزوج بالأشكال المختلفة والتراكيب المتنوعة، وبالمادة التشكيلية التي يقوم عليها معرض «تلاحين الخط»، الشيء الذي تنتج عنه بعض الفنيات الجديدة بين خاصيات الخط العربي وبين المنطق التشكيلي، ما يفصح عن درجة من الوعي الفني للتعبير بهذه المقاربة. بل إن الرؤية البصرية تظهر بأن البناء الخطي والحروفي في عمومه، مثقل بالإيحاءات والإشارات والرمزية، وهي عناصر تشكيلية أساسية تقتحم بها فضاءات الحداثة وعوالمها الإبداعية الجديدة. وبذلك يتشكل هذا المعرض وفق مستحدثات تقنية ووفق رؤى تعبيرية، وآليات نصية هائلة، يمتزج فيها الخط بالتشكيل بمقدرة أدائية عالية. ما يجعل الأعمال الخطية تتخذ أحيانا أبعادا تجريدية وأدبية وثقافية وثيقة الصلة بالمنجز الحروفي الحداثي، الذي يتحول من التعبير بالخط، والتعبير بالشكل والنص إلى مادة أيقونية تتسم بسحر فني عميق الدلالة، قوامها الأشكال الجديدة ذات الخطوط المتعرجة المفتوحة، تجمع بين الحروف والأشكال المعوية والأفقية والعمودية المستحدثة، بإيقاعات لحنية للحروف والأشكال. وهي تشكل عناصر فنية في إطار التماثل والتباين والوحدة والانسجام بتمثيل للمقومات الإيجابية للعمل الخطي، من حروف ومقاطع وكلمات، يسيطر جزء منها في المعرض على كامل تكوينها، بحيث يصبح مركزا لجذب النظر، وفق أنساق متناغمة مع كل تلك العناصر، في المزاوجة بين ضروب متعددة من الفنيات الخطية، يتم الوصل بينها وبين الأشكال الجمالية المستحدثة، ما يؤكد عروة التجانس بين كل المفردات الفنية.

وبذلك يتراءى معرض «تلاحين الخط» في أبهة أسلوبية خطية عربية، تتبدى فيه اجتهادات نابعة من السيميولوجية المحلية، والمؤثرات الفنية المعاصرة، ما يكشف عن فحوى مشروع فني وجمالي، يمنح المشهد الخطي العربي تحويلا خلاقا، يتمثل الكل الفني، ويستهدف قيم السطح، ويجمع المفردات التشكيلية بأسلوب خاص، ينبض بالإبداع في شكله المعاصر، ما يجعل هذه التجربة العالمة تضطلع بتقاطعات فنية وأدبية أنيقة في وضع تشكيلي مبهر، يهدف تشكيل الحرف على مرمى من التنميق والانتقاء والتنويع، فيتراءى الدال الخطي، في أسمال الأبعاد الفلسفية والقيم الجمالية. وهو نوع من التجديد في انبعاثات الرؤية البصرية التي تستجلي غالبا معاني إضافية. وهذا يؤكد بأن هذا المعرض يقوم على ميزان فني معرفي متوازن، يجمع بين المجال الحسي والمجال البصري، مليء بالطاقة التعبيرية التي تحدث تفاعلا بين مختلف العناصر الفنية التي تشكل تصميما مفتوحا على بلاغة خطية جديدة، وعلى دلالات تمنح اللوحات جماليات متنوعة، تسمو في صفوة التشكيل العالمي المعاصر. فهو معرض يحاكي العالمية ويروم الارتقاء بالخط إلى أسمى المراتب الفنية. وهو ما تفصح عنه التجربة العالمة لسمو الشيخة خولة المتعددة في الواحد أدبا وشعرا وخطا وفنا، فارتقت عاليا في التدبير الخطي والحروفي والتوظيف الشكلي والفني والجمالي، وفي تحقيق توليف بين وحدة الشكل والبناء والتصور والأسلوب، وبين الأدب والشعر الفصيح والشعر النبطي والكلمة الهادفة، لتقدم منجزا فنيا وثقافيا متكاملا.

نجاة الزباير

سَيِّدةُ القِطَارِ

لوحة للرسام الأمريكي إدوارد هوبر

فَرْقٌ كَبيرٌ بَيْنَنَا يا سيدي
فَأَنَا مُحَافِظَةٌ وَأَنْت جسور

سعاد الصباح

1

بيني وبينهَا نقطتَا ندًى
.«آسفْ سيِّدي . .» قالت
وانقسمَ الهواءُ بيننَا
واحدٌ فيه عِشقي
والآخرُ لهَا
يتسكعُ فيه اندثَاري
وأنا أذُوبُ في أحْدَاقِهَا .

2

مثلَ الشتاءِ تعبرُ خلاياي
تنثُرني قمحًا للهواجِس
وقلبي قَدَحٌ
مُعطرٌ ببُنِّ الشوق
يشربُ منهُ صَمْتُهَا
كيف أُلَمْلِمُ ذُبولي
وهيَ تجلسُ بينَ انكسَاري
ومَلامِحي تُهَرْوِلُ نَحْوَها؟ .

3

معطفُ الليلِ يرتدي وجعِي
وهذه القصيدةُ
تقدُّ قميصِي من قُبُلٍ

أصعَدُ في كُلِّ الصَّرَخَاتِ
مُهَاجِرًا في جَسَدي
تَفِرُّ مِنِّي يَدَايَ نَحْوَهَا
هي الحيرةُ تحملُ حقائِبي
تسْرقُ نَهَاري منِّي
فأراني وَتَرًا بينَ كَفَّيْهَا .

4

مُسافِرٌ
أرتَعِشُ من هَذَا التِّرْحَالِ
تتَّسعُ أَزْمِنَتي
وكأَنَّ حَبِيبَتِي تَطْرُقُ بَابَ
حَوَاسِّي

لكن الأرقَ يُمْسكُ بي
وأنا أهُمُّ بفتحِ أَزْرَارِ المَاءِ
يَشْنُقُنِي عَطَشٌ
وأنَا أبحثُ عَنِ الظِّلَال
فَتُغْلِقُ الأحْلامُ أبْوَابَهَا .

5

نَايُ المساءِ يُنَادِمُني
وهذا الأَنِينُ المنهمرُ
من أَصَابِعِي
يقرأُ ضوضاءهُ غُرَبَاء
عَبَرُوا أدغَالَ الْعَتَمَاتِ
قالوا : لا تَخَفْ . . .
كانتْ تأوهاتُ صَدْرِي
ألواحَ عشْقٍ
أربكَتْنِي قَصَائِد مَنْ مَرُّوا
تَجَوَّلْتُ في تَضَارِيسِهَا
فَهَرَبْتُ إِلَيّ
أُصْغِي لنَهْرِ دَمِي
يَكْتُبُنِي ظِلاًّ بَاهِتًا
لا أَرَى فيه
غَيْرَ اضْطِرَابِي وَحُسنِها .

6

وأنا أنسلُّ منِّي ذَاتَ صباحٍ
قلت : «سأَمتطي صَهْوَةَ
اعترافَاتي
عَلَّهَا تسمعُ تنهيدةَ مُدُنِي»
تَأَنَّقْتُ بِغُبَارِ الوَهْمِ
وَنَادَمْتُ عِشْقَهَا .

7

حَفَظْتُ عنْ ظَهْرِ قَلْبٍ
كُلَّ شِعَابِ الْهَوَى
وَعَمَّتْ ضُلُوعِي سَكِينَةٌ
وأَنَا أَقْرَأُنِي بَيْنَ سُطُورِهَا .

8

كَانَ القِطَارُ يَحْسُو شَغَفِي
فَرَّتْ خُطُوَاتِي نَحْوَهَا
وأنَا أبْحَثُ عَنْ عَبِيرِهَا
لكنِّي لَمْ أَجِدْ غيرَ عويلٍ
يَضُجُّ به مَكَانُهَا
. يا لَيْتَنِي اعترفْتُ
لكُحْلِ عينيْهَا
بأَنِّي أَعْمَى يَقُودُنِي هَوَاهَا
فربَّمَا انبلجَ نُورُهَا
وقالتْ : سَنَلْتَقِي . . .

كتابة المدينة بين التاريخ والذاكرة..

أسامة الزكاري

صدق من وصف المدينة بالكائن الحي. وصدق من اعتبر المدينة عنوانا للنبوغ الحضاري وللتميز المدني. وصدق من اعتبر المدينة سكينة الروح ومآل الطمأنينة. وقبل كل ذلك، صدق من اعتبر الكتابة عن ذاكرة المدينة، اعترافا وامتنانا وتقديرا من النخب المحلية لهذا الحضن الحميمي التي أنجب كل مستويات الإبداع والعطاء في تدبير المعيش اليومي، وفي تنظيم الفضاء العام المشترك، وفي إنتاج التراث الرمزي الذي يسم التجمعات السكانية بميسم الخصب والفرادة والتميز داخل وسطها الإقليمي والوطني والدولي الواسع والممتد.

مناسبة هذا الكلام، صدور كتاب «تطاون التي في خاطري»، للأستاذ عبد القادر الزكاري، سنة 2022، في ما مجموعه 214 من الصفحات ذات الحجم الكبير، ضمن منشورات جمعية تطاون أسمير. فالكتاب، يشكل استلهاما لمكنونات التراث الرمزي والمادي الذي راكمته مدينة تطوان على امتداد عقود زمنها الماضي. لا يتعلق الأمر بكتابة تاريخية تخصصية تتقصى الأحداث السياسية، ولكنها كتابة استرجاعية تستنفر الذاكرة الجماعية، في سعيها للقبض بتفاصيل خصوبة الوسط العام لمدينة تطوان، كما عاشها المؤلف، عاشقا ومبدعا ومفتتنا بعناصر جمالها الأخاذ، بمرجعياته الحضارية المتعددة، وبعبق التاريخ الأصيل، وبفردانيته المثيرة التي جعلت من مدينة تطوان حالة فريدة بين حواضر المغرب، عطاءً وإبداعا وريادة. ويمكن القول، إن هذا العمل يكتسي قيمة ثقافية ومعرفية كبرى، لاعتبارات متعددة ومتكاملة. يرتبط أول هذه الاعتبارات بشخصية المؤلف نفسه، فالأستاذ عبد القادر الزكاري معروف في وسطه وبعموم منطقة الشمال كرجل للتربية والتعليم على امتداد مساره المهني الممتد بين سنتي 1961 و2016. كما أنه معروف بعطائه الجمعوي الذي انخرط فيه منذ صباه، وظل وفيا له في عطائه داخل مؤسساته الثقافية والرياضية بشكل يحمل الكثير من صفات النبل والإقدام. وقبل ذلك، فالرجل سليل تربية مدرسة الحركة الوطنية، فتح عينيه على أجواء التوهج تشع من كل ركن من أركان المدينة، ومن كل زاوية من زواياها، ومن كل درب من دروبها. فتح عبد القادر الزكاري عينيه على معالم خالدة في نبوغ مدينة تطوان، وامتح منها عناصر شخصيته وسمو عطائه. فتح عبد القادر الزكاري عينيه على معالم قائمة وأخرى اندثرت، لكنها ظلت راسخة في ذاكرته، يعود للنهل من معينها ولاستلهام نوسطالجياتها، مثلما هو الحال مع «المدرسة الأهلية»، أو مع «المعهد الحر»، أو مع «معهد مولاي المهدي»، أو مع ساحة «الفدان»، أو مع شارع «شانتي»، أو مع «المعهد الرسمي»،...

ظل الأستاذ عبد القادر الزكاري منخرطا بالكامل في نسق حياة محيطه، متفاعلا مع جزئيات التحول أو التميز داخل التراث الرمزي غير المدون في مسلكيات الناس وفي أنماط تفكيرهم وفي مشارب ذهنياتهم. كما ظلت عينه دقيقة في رصد تحولات المشهد المادي العام لشواهد الزمن الماضي، سواء المرتبطة بمراحل تأسيس مدينة تطوان، أم بشواهد الزمن الحاضر المرتبطة بمرحلة الاحتلال الإسباني لشمال البلاد عند مطلع القرن 20. ولعل التقاء هذه الصفات في شخصية الأستاذ الزكاري، أهلته لتوظيف حسه الجمالي ونزوعه الفطري نحو التقاط عناصر الخصب والإبداع داخل نظيمة حياة سكان مدينة تطوان، ثم تحويلها إلى متون سردية شيقة، لا شك وأنها تكتب ل»عينه الثالثة» -والتي ترى ما لا تراه العين العادية- كل صفات الخلود، إنقاذا للذاكرة الجماعية للمدينة ولمعالم عطائها الحضاري الفريد.

ويلخص الأستاذ عبد القادر الزكاري عناصر السقف العام لكتابه الاسترجاعي موضوع هذا التقديم، في كلمته التمهيدية، قائلا: «تطاون، أو تطوان، التي في خاطري هي عبارة عن ذكريات منقوشة في مخيلتي عن مدينتي الحبيبة، تمتد عبر سنوات عمري التي عشتها فيها رفقة الأهل والإخوة، والأصدقاء والخلان،... حيث أعيش وأعايش دون توقف عن مقارنة الزمن المعاش وقتئذ مع الزمن الذي ولى، إنه ذلك الزمن الذي لا يفارق ذهني حيث تنتصب ذكرياته المتنوعة قائمة وملوحة في عمق ذاكرتي. إنها تلك الذكريات المدرسية والعائلية والاجتماعية والجمعوية والفكرية والمهنية والفنية والرياضية... ورغم تنوع مواضيع هذه الذكريات واختلاف مجالاتها، فإن قاسمها المشترك هو مدينتي وحمامتي البيضاء، لذلك وسمتها ب»تطاون التي في خاطري» لتكون عنوانا أشمل لكل ما سوف أقوم بكتابته تحت عناوين صغيرة ذات مواضيع محددة، أعتبرها بمثابة تراث تطاوني متميز ومتفرد، شريطة قيد قيدت به نفسي وهو أن تكون كتابتي بسيطة ومبسطة تسهل قراءتها من لدن الجميع...» (ص ص. 9-10).

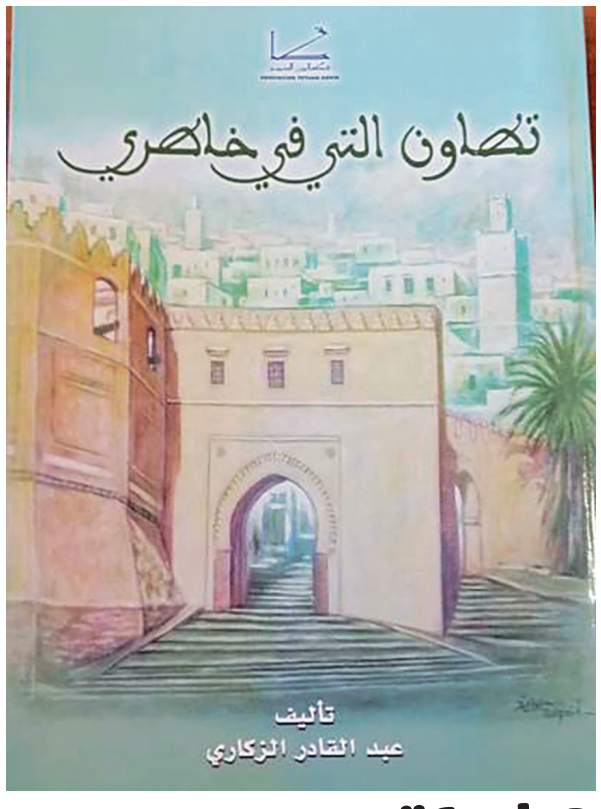

حول كتاب «تطاون التي في خاطري» لمؤلفه الأستاذ عبد القادر الزكاري

وإذا كانت كتابة الأستاذ الزكاري قد نحت نحو صفة التبسيط في عرض التفاصيل، فإن هذا التبسيط فتح مجالا واسعا أمام فعل السرد اللامتناهي، حيث تنهض قصص على قصص، ومحكيات على محكيات، وتفاصيل على تفاصيل، مكونة رصيدا هائلا من مكنونات المادة الخام التي لا نجد أثرا لها بين متون الكتابات التأريخية التخصصية بمعناها الحصري الضيق. تقدم كتابة الأستاذ الزكاري بعدا حميميا في التفاعل مع معالم المكان ومع عادات المجتمع التطواني المحلي، بشكل يحفظ عناصر توهجها من الاندثار ومن التواري بفعل عوادي الإنسان والزمن. لذلك، تشكل هذه الكتابة تدوينا جماليا لطقوس اختفت وأخرى قائمة، ولمعالم اندثرت وأخرى صامدة، مع إضفاء عليها صبغة فريدة ساهمت في أنسنة مضامينها ومجمل تعبيراتها المتداولة بين الناس والمتوارثة داخل مكنونات الذاكرة الجماعية. وفي هذا الجانب بالذات، تكتسي لغة الأستاذ عبد القادر الزكاري صفة التميز والعمق التي جعلت الكتاب مجالا مفتوحا للاشتغال بالنسبة للباحثين والمهتمين المنتمين لحقول معرفية مختلفة، لعل أهمها التاريخ والسوسيولوجيا والأدب والأنتروبولوجيا.

استطاع الأستاذ الزكاري تحقيق صفة التراوح بين زمنين في ذاكرة مدينة تطوان، زمنها الذي كان، وزمنها القائم، مما يفتح المجال واسعا أمام كل المقارنات الممكنة الراصدة لعناصر النبوغ في مقابل عناوين التردي. ولقد عبر الأستاذ رضوان احدادو عن هذه الصفة، عندما قال في كلمته التقديمية للكتاب: «رفيق هذا العشق الصديق عبد القادر الزكاري، مغامر مواصل، لم يؤمن يوما بالفراغ، طليعة المؤهلين لقيادة المركب القادرين على العناد ومقارعة الموج. وأحد المفتونين بسحر المدينة، المسكونين بأفراحها وأحزانها،... قدر له أن يعيش فيها زمنين متناقضين، متداخلين متنافرين، متقاربين متباعدين، متواصلين متقاطعين، فكان بحق شاهد مرحلتين، حياتين، زمنين، زمن هذا الذي يعيشه الآن ويعيشه الناس معه، وزمن عاشه ولم يعشه كل الناس معه.. لم يعد يتذكره الكثير من الناس. من هنا يبدأ الخطو وينطلق المشيء...» (ص.6).

ينطلق «خطو» الأستاذ عبد القادر الزكاري مقدما تفاصيل غزيرة حول صور احتفظت بها الذاكرة من زمن ولى، مثل «المدرسة الأهلية»، و»الفدان»، و»لونيطا»، و»الطرولي»، و»الطران» (القطار)، والمعاهد التعليمية التطوانية الثلاثة الكبرى لعهد الحماية. وبموازاة مع ذلك، ينفتح المؤلف على مكنونات التراث اللامادي الذي يمنح لتطوان تفردها، مثل العادات المعتمدة في حفلات الزفاف، والجنائز، والأعياد الدينية، والمناسبات الوطنية، وتساكن الجيران، والأنشطة الترفيهية، والرحلات المدرسية،...

وإذا كان الأستاذ عبد القادر الزكاري قد استفاض في الاحتفاء بمعشوقته تطوان، فإنه -في المقابل- لم يتردد في التعبير عن انزعاجه الكبير من المآل الذي انتهى إليه واقع المدينة، في ظل مسلسل متواصل للتردي المزمن. يقول المؤلف بهذا الخصوص: «إذا كانت تلك هي تطاون المعشوقة والمحبوبة من لدنا جميعا، فإننا للأسف الشديد نعيش الآن تطاون أخرى مخالفة ومختلفة، أضحت غريبة عنا وعن تلك المظاهر والعادات الحضارية الأصيلة المميزة لها، بعدما لحقت شوائب بعاداتها وتقاليدها وغيرها فمسختها وأصابتها في الصميم. فلم تبق عاداتنا تلك هي المعهودة، ولا تقاليدنا هي الموروثة، بل حتى الإنسان في تطاون قد تغير سلوكه وطبعه وعلاقاته، وأصبح بنسبة عالية منه يميل كل الميل إلى ما ورد ولازال يرد على مجتمعنا في شكل يشبه ريحا عاصفة تعصف وتقتلع كل أصيل لدينا...» (ص.191).

يشكل الكتاب صيحة لإعادة تثمين غنى الذاكرة الجماعية لمدينة تطوان، من خلال إبراز عناصر إشعاعها. من جهة أخرى، يحمل المؤلف غيرة حقيقية لصيانة التراث المحلي المحفوظ في الصدور، ليتحول هذا التراث إلى مادة خام ضرورية لكل عناصر الدراسة المونوغرافية لتحولات واقع مدينة تطوان الأصيل، من الأمس إلى اليوم.

مع الأكاديمي الإسباني مانويل فيريا غارسيا ترجمان بمنظمة الأمم المتحدة

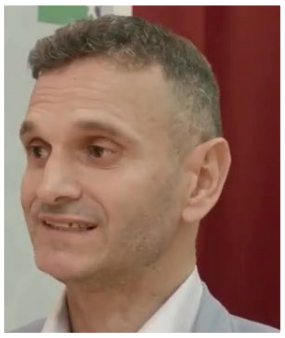

أنجز الحوار: عبد الخالق نجمي

ترجمة: عبد للطيف شهيد

مانويل كارميلو فيريا غارسيا ، أستاذ جامعي في كلية الترجمة والترجمة الفورية بجامعة غرناطة منذ عام 2003. كان باحثًا زائرًا في معهد مونتيري للدراسات الدولية بالولايات المتحدة الأمريكية وجامعة يورك بالمملكة المتحدة. دكتوراه في الترجمة التحريرية والفورية من جامعة ملقة (2002). مترجم للغة العربية لدى إدارة العدل بمحكمة (مالقة – Málaga) الإقليمية من 1992 إلى 1997. مترجم محلف للغة العربية بوزارة الخارجية منذ 1994. كان أستاذاً للترجمة القانونية ونصوص الأمم المتحدة (من اللغة العربية إلى الإسبانية) في مدرسة طليطلة للمترجمين. كما اشتغل منذ عام 2010 مترجما متعاونا خارجيا (العربية والإنجليزية) في الدائرة الإسبانية بمقر الأمم المتحدة بجنيف ونيويورك. نشر العديد من الأعمال والمقالات المتعلقة بالترجمة العربية – الإسبانية.

أمّي اعتنقت الإسلام .. كانت بداية تعلُّمي اللغة العربيَّة في المسجد ثم بر حاب الجامعة

متى بدأ اهتمامكم بالعالم العربي والترجمة العربية -الإسبانية؟

منذ سن المراهقة، فقد اعتنقت أمي الإسلام، وبدأت أول مراحل تعليمي للغة العربية بالمسجد، بعدها برحاب الجامعة. تلك السنوات شهدت إقبالا على المترجمين للعربية بإسبانيا وتمت الأمور بسلاسة.

بدأت رحلتكم مع الترجمة؛ بالترجمة الأدبية ثم انتقلتم إلى الترجمة القانونية، ما سبب هذا الانتقال؟

لا أعتقد أن الأمر كان على هذا النحو، اهتمامي دائما كن مُنصبًا على الترجمة القانونية. في بادئ الأمر كمترجم رسمي بمحكمة مقاطعة مالقة، بعدها وإلى حد الساعة كمترجم محلف، فقط لديَّ ترجمة أدبية فريدة، كانت بغاية التعرف على الأجواء الأكاديمية، ثم لم أعد إليها نظرا لأني أجهل الكثير عن الأدب.

ما هي الصعوبات التي واجهتموها عند ترجمتكم ديوان محمود درويش «ذاكرة للنسيان»؟

برغم أن القصائد المترجمة لها تعقيداتها، فإن أكبر صعوبة كانت هي أنا، فلا السن ولا التجربة تُسعفانني لمقاربة ذلك، لكن، على كل حال عقيرة الشباب دفعتني للتعرُّض إلى الأمر.

كيف انبثقت لديكم فكرة صياغة ونشر معجم المصطلحات القانونية عربية-إسبانية؟

لقد بدأت في جمع المصطلحات القانونية من أول ترجمة قُمت بها. لم تخطر ببالي الفكرة، الواقع المهني هو من فرضها علي. من ناحية أخرى، هناك أشخاص يحتاجون إلى لعب الشطرنج مع أنفسهم لمواصلة المد والجزر، أنا أجيد الأمر؛ كخاتم حول الأصبع.

هناك من الباحثين من يرى أنه آن الأوان لإغناء المعجم بمصطلحات قانونية لبلدان عربية أخرى، ما رأيكم؟

معهم حق، وأنا لم أدخر جهدا في الاشتغال على ذلك.

هلا حدثتمونا عن تجربتكم كترجمان لدى المحاكم الإسبانية؟

صراحة، لم أكن مرتاحا، لكن الأمر ساعدني على تدبير مصاريف العيش في سنة كانت صعبة على عائلتي ماديا، وقد استفدت من التجربة كثيرا.

كيف تنظرون إلى الترجمة القانونية بإسبانيا؟

لا أدري ماذا تقصدون بالضبط، لكن، ككل سوق الشغل الإسباني هناك اتجاه إلى الانخفاض.

كيف تقوِّمون عملكم كمترجم داخل مكتب الأمم المتحدة بجنيف؟

من الصعب أن يقوِّم شخص ما، عمله بنفسه، الأمر موكول على ما أعتقد لمن يعلونني مرتبة. أنا جد فرح بعملي داخل أروقة هيئة الأمم المتحدة سواء في نيويورك أو جنيف، وأتمنى الاستمرار في العمل هناك.

تخصَّصتم في دراسة العملات النقدية للموحدين. هل صحيح أن هذه العملات كانت وسيلة للتعبير عن الفكر الديني والسياسي السائد في الدول التي أصدرَتها؟

نعم، كان هذا ما طرحته في كتابي.

لقد أقمتَ في المغرب منذ سنوات عديدة وعملت على الترجمات القانونية، وكذلك اشتغلتم على قانون الأسرة. كيف كانت تجربتكم؟

لا، هذه معلومات غير دقيقة، إقامتي بالمغرب كانت لبضع شهور فقط، كنت أحيانا أزور المغرب خلال نهاية الأسبوع، مرة مكثتُ مع لويس ميغيل و ماري لوث لمدّة شهر، مرة أخرى بفاس وشهر آخر في إطار برنامج « إيراسموس». فيما يتعلق باشتغالي كمترجم مُحلف وفي قانون الأسرة، أنا ممتن جدًا لزبنائي - كثير منهم شبه أميين أو أميُّون بالكامل- لكل ما علموني إياه.

هل تعتقدون أن المترجمين للعربية في عهد الدولة الإسبانية خلال فترة الحماية، كان لهم تأثير هام على مسار العلاقات الإسبانية المغربية؟

هذا واضح، وهذه أطروحة وضعتها في كتابي. نحن لم نغير رأينا.

بماذا تنصحون المترجمين الشباب بين العربية والإسبانية الذين يطمحون إلى الاشتغال في الترجمة القانونية والترجمة داخل أروقة الأمم المتحدة؟

أن يدرسوا يوميا وعلى مدى الحياة، وأن لا يهملوا لغتهم الأم، فهي أكبر الثروات.

بالنسبة إليكم، من هم أنجح المترجمين الإسبان الذين يُترجمون من العربية إلى الإسبانية؟

بصراحة، لا أعتقد أنه يمكن الرد على ذلك بهذه الطريقة. إنه يشبه السؤال عن أفضل سائقي سيارات الأجرة في غرناطة، أفترض أن الأمر يعتمد على نوع الخدمة أو وجهة النظر. ومع ذلك، أعجبتُ بالمترجمين من اللغة العربية الذين هم أصدقاء حقيقيون، وليسوا فقط زملاء عمل أو معارف. الكل يعرف من هم.

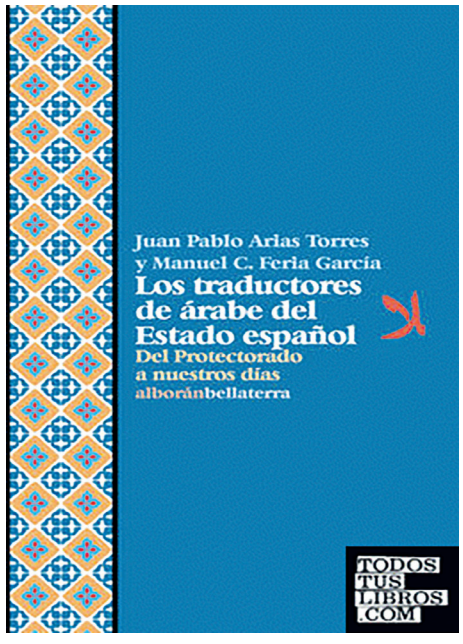

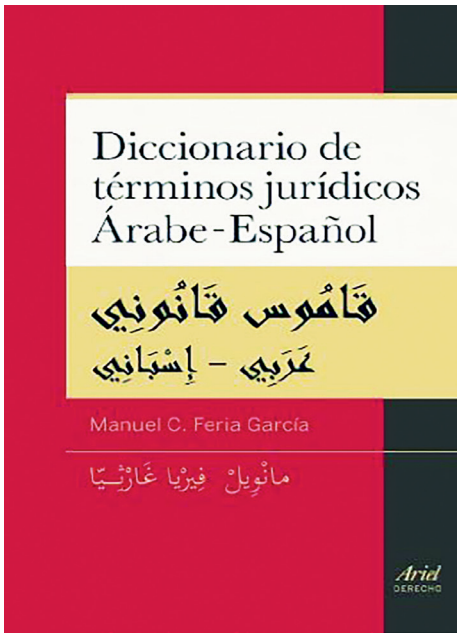

بطاقة:

-عبد الخالق نجمي: من مواليد طنجة 1978، خريج مدرسة طليطلة للمترجمين، حاصل على الدكتوراه من جامعة مدريد المستقلة ويعيش في غرناطة. وهو مترجم وصحفي اشتغل مع عدة وسائل إعلام مرئية ومسموعة ومكتوبة في المغرب وإسبانيا وأمريكا اللاتينية.

-عبد اللطيف شهيد: مترجم مقيم بين المغرب وإسبانيا، صدرت له مجموعة قصصية مترجمة «الشاب الذي صعد إلى السماء: مختارات قَصصية من أمريك اللاتينية. »

الدكتور حسن الأمراني ناقدا

«سيمياء الأدب الإسلامي» نموذجا

د. محمد دخيسي أبو أسامة

تحضر الكلمة الشعرية في النقد، وتسري مسرى الدم في العروق، هي كلمة تراود شاعرنا في كل منابر اهتماماته، ويزين بها أفق انتظار القارئ العربي بما تزدان به مؤلفاته. نقرأ في مقدمة ديوان (لو كان قلبي معي)1 للشاعر والناقد الدكتور حسن الأمراني قوله: «نؤسس شعرا جديدا يلغي إلى الأبد المقولة الزائفة التي ترى أن الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في باب الخير لان وضعف، ويضرب صفحا عمن يؤول مقولة: إن الدين بمعزل عن الشعر بما لا يرضي الشعر ولا يرضي الدين على السواء..»2

فالملاحظ من خلال هذا التقديم الأولي عدم استسهال الشاعر أمر الكتابة الشعرية، ثم محاولة إعطاء الرؤية النقدية المسبقة حول الأدب الإسلامي عامة والشعر بصفة خاصة.

ما يثير انتباهنا أيضا أن حسن الأمراني استغرق في كتابة لعقود، وهو في الوقت ذاته مكرس لجهد غير يسير لتقريب المفاهيم وتوزيع أدواره بين التفكير والتنظير والتقريظ.

في هذا الصدد اخترت التعامل مع هذه القضية انطلاقا من تجربة حديثة العهد، وهي كتاب: «سيمياء الشعر الإسلامي -1 المصطلح والدلالة»3، بمقاربته انطلاقا من:

-تحديد المصطلح
-الرؤية المنجهية
-بين الشعر والتنظير..

تحديد المصطلح

استهل د. حسن الأمراني كتابه بعتبة تقديم أولية استعرض فيها بعجالة بعض الملامح الأساسية للسيميائيات أو السيميولوجيا دون الفصل في اصطلاحها وتعريفها، غير أنه اختتم القول بتأكيد القصد من وراء عنونة المؤلف بقوله: «فنحن لا نريد بسيمياء الأدب الإسلامي إلا ما يشير إليه اللفظ العربي لغة واصطلاحا، بالنظر إلى ما شهده من تطور عبر حوالي ثلاثة عشر قرنا من الزمان، ثم تحديد السمات، أي العلامات، التي تميز هذا الأدب عن غيره من الآداب، فكريا وجماليا، ولا شأن لنا هنا بالمنهج السيميائي لتحليل النص.»4

نقف قليلا عند هذا التحديد المصطلحي، ولا يهمنا كثيرا المضمون الداعي إلى تعريف الأدب الإسلامي، بقدر ما نتتبع طريقة البحث التي ارتضاها الشاعر والباحث في هذا المقام، لنشير إلى:

أولا: التضليل المصطلحي؛ ذلك أن حسن الأمراني اعتمد مبدأ التشويق والتضليل في آن واحد، فكانت عتبة العنوان طريقا لجذب القارئ إلى البحث عن مقصدية (السيمياء)، لذلك يذهب ذهن المتلقي فورا إلى الجانب المنهجي المتعلق بالسيمياء، إلا أن نهج الكاتب يفند هذه الرؤية منذ البداية، ليعطي الدليل على أنه بصدد البحث عن المصطلح لغويا غير ما هو متعارف لدى علماء من أوربا وأمريكا كونه علما: «يهتم بدراسة أنظمة العلامات: اللغات، أنظمة الإشارات، التعليمات..»5

ثانيا: التوضيح والتبرير المصطلحي: إذ باعتماد النص الشعري والقرآني دليلين، استطاع حسن الأمراني أن يؤكد أن لفظ (السيمياء) قرين بالملمح، وأن البحث في المصطلح إنما بحث في الأدب الإسلامي مصطلحا وواقعا.

ثالثا: اعتماده التضليل قياسا بالانزياح الدلالي في الشعر، وقد يكون الأمر موكلا للشاعر أكثر، لذلك حاول أن يتملص من فحوى الخطاب المباشر ليعبر عن رؤية نقدية منطلقة من رؤيا شعرية.

الرؤية المنهجية

حينما اخترت (سيمياء الأدب الإسلامي) نموذجا، فذلك على اعتبار أنه مؤلف بطابع نقدي بكل المقاييس المعتمدة. فحسن الأمراني بدأه من العام إلى الخاص، ليلتقط أهم الأفكار التي جمعت، ويجمع القضايا التي أثيرت في مجال الأدب الإسلامي.

منهجيا، قام الكاتب بتتبع بعض الآراء المتعلقة بهذا الجنس الأدبي، فكانت البداية من جمهور اليساريين، حيث انتقل البعض منهم من موقف الاستهتار به إلى موقف التبني. ثم انتقل إلى إدراج بعض كبار المبدعين ضمن دائرة الأدب الإسلامي.

نقف قليلا عند هذه الرؤية النقدية الجديدة التي تبناها حسن الأمراني. لذلك يتساءل قائلا: «وإلا فقل لي بربك كيف تميز، ضمن الرؤية الفنية الإسلامية، بين العمرين: عمر أبي ريشة وعمر بهاء الدين الأميري؟»6

وبعد هذه الرؤية الأولى، يصل إلى الجانب التطبيقي، لأخذ الصورة من الجانب الثاني. فيعود إلى بعض كتاباته السابقة التي أضفى عليها الموقف الثابت من القضية المقدمة سلفا، فيجد أن خناثة بنونة كتبت أدبا مسؤولا حين تطرقت للقضية الفلسطينية في قصصها، كما أن عبد الله راجع ساهم في بناء الفكر الملتزم بالقضية حين كتب قصيدته (أعلنت عليكم هذا الحب)، مقارنة مع قصيدة (توأمة فارسة) لفريد الأنصاري. يقول حسن الأمراني في هذا الصدد: «وبينت وقوف الشاعرين معا ضد كل أنواع الانسلاخ الحضاري، سياسيا واجتماعيا وثقافيا، برؤية جمالية فائقة تفضح الضحالة الفنية التي تتردى فيها بعض النصوص التي تنشر تحت لافتة الأدب الإسلامي، وهي لحسن الحظ استثناء في باب الأدب الإسلامي وليست قاعدة.»7

والأكيد أن الشاعر/ الناقد عاين عن كثب كل المقاربات النقدية التي كانت تسير مسرى الدم في فكر الباحث العربي، غير أن استلهامه النظرية المتكاملة والرؤية الوازنة جعلته يختار التحكيم الفردي دون اللجوء إلى النظريات الغربية.

كما أنه قدم تقسيما غريبا لكنه مفيد، إذ جعل العتبة أولى المداخل حيث عرض الفرق بين السيمياء لغة واصطلاحا، ثم مدخل ركز فيه على مواقف متباينة من الأدب الإسلامي،

فتمهيد خصه للمصطلح والدلالة، حيث ناقش مفهوم الأدب الإسلامي وما ترتب عن ذلك من أفكار وقضايا، فخلص إلى القول: «والحال أن مصطلح الأدب الإسلامي قديم في ظهوره، قد يعود إلى نهاية القرن الهجري الأول وبداية القرن الثاني ... إلا أن دلالة المصطلح شهدت من التطور ما يقتضي التتبع لفهم ما آل إليه المصطلح في هذا العصر.»8

لذلك عمد الأستاذ حسن الأمراني إلى تقسيم المراحل التي شهدها هذا المصطلح إلى أربع، وهي:

-أولا: مرحلة التحديد التقليدي: أدب فترة، حيث نهج فيها التقسيم القديم لعصور الأدب العربي، فجعلها خاصة بشعراء ما بعد العصر الجاهلي كما عند الأصمعي في فحولة الشعراء، أو في طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي. غير أنه انتهى إلى اعتبار ما قدمه ابن خلدون أوجَ ما وصل إليه الفكر العربي آنذاك، إذ اعتبر كل ما جاء بعد ظهور الإسلام إلى اليوم أدبا إسلاميا. ثم الرافعي في (تاريخ الأدب العربي) الذي ذهب إلى القول إن أدبنا عبر التاريخ أدب إسلامي. يقول حسن الأمراني في هذا الشأن: «وعلى هذا يكون الرافعي أول من قدم معنى جديدا، من المحدثين، لمصطلح (الأدب الإسلامي)، مؤكدا خصوصية ذلك الأدب الممتد عبر الزمن، منذ مجيء الإسلام إلى ما شاء الله تعالى، وجعله مرتبطا باللغة العربية التي هي أساسا لغة القرآن الكريم. وبذلك يفتح الرافعي الباب أمام المصطلح ليكتسب دلالته المعاصرة.»9

فالملاحظ أن حسن الأمراني، يختار ما يوافق رؤيته للأدب الإسلامي، ويناشد الآراء السابقة لتكون بابا مفتوحا أما تقويم للأدب الإسلامي مصطلحا ودلالة. لذلك انتقل كما قلنا سابقا من العام إلى الخاص، فوصل إلى تحديد أكثر خصوصية في المرحلة الثانية.

-ثانيا: مرحلة التحديد الانتقالي: أدب طفرة: وقد انتقل في هذه المرحلة إلى بعض الرؤى الغربية الاستشراقية، فخلص إلى كون الأدب الإسلامي حسب بروكلمان هو: «الأدب الذي أسهمت فيه كل الشعوب التي انضوت تحت لواء الإسلام.»10 وهو بذلك وضع الأصبع على أول نقطة يمكن أن تدلنا على تفكيك مصطلح الأدب الإسلامي، الذي تطور ليصبح أكثر خصوصية في المرحلة الثالثة.

-ثالثا: معالجة المضمون، أدب الفكرة: ينطلق الأستاذ حسن الأمراني من فكرة قديمة أساسها أن الشعر إذا تأثر بروح الدين لان وضعف، كما أنه يضع مقارنة بين روايتين: (الأرض) لعبد الرحمن الشرقاوي و(شيء من الخوف) لثروت أباظة، بين كاتبين ينتميان إلى فصيلين مختلفين؛ فالأول اشتراكي والثاني إسلامي، غير أن البحث جعل الكاتب يقر أن الشرقاوي كان مستخفا بالدين والعقيدة والرموز المقدسة كالجنة والنار والإمام و...

فجعل الروائي الشخصية في خدمة مبادئه الهدامة، عكس بديلتها عند ثروت أباظة: «وليوازن القارئ، إن شاء، بين هذه الشخصية السلبية التي تكاد تكون بغيضة، وبين شخصية الشيخ إبراهيم في رواية (شيء من الخوف) ثروت أباظة، حيث الشخصية الفذة التي تضحي بمالها وأهلها في سبيل مبادئ الشريعة، شخصية لا يصدها عن الحق تهديدات المجرم عويس الذي يسلط كل قوته وعملائه ضد الشيخ إبراهيم.»11

لذلك تنبع الشخصية الدينية باعتبارها أفقا مفتوحا للقراءة المتشبعة بالمبادئ والأسس المتينة، في حين تختفي لتحضر مكانها شخصية المجرم والتحديد السلبي للشخصيات المتزنة. ولعل ذلك راجع بالأساس إلى امتلاء روح الكاتب بالقوة الإيمانية التي تنزهه على اقتراف الإثم سواء في حياته أو في إبداعه.

-رابعا: إنسانية الأدب: أدب الفطرة: فطر الإنسان على الفعل الصحيح، والنية الصالحة، لذلك حين تحضر -كما أسلفنا الذكر- روح الدين والمبادئ الإسلامية يكون المبدع ملتزما بالتحفظ والتودد والكتابة وفق تصورات ورؤى فكرية متزنة، مع احترام الجانب الفني واستلهام ما يقود النص ليكون إنسانيا عالميا.

هي إذن رؤية ثاقبة استقاها الأستاذ حسن الأمراني، وجعلها بديلا للالتزام الوجودي، فكانت المسؤولية التي رسم طريقها إلى جانب مؤسسي نظرية الأدب الإسلامي، فهي الفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لها.

لذلك يورد مجموعة من المواقف التي تسير في الاتجاه ذاته، نذكر السيد قطب مثلا باعتباره رائدا أعطى مفهوما موسعا له. ثم يقدم بعض النماذج لشعراء دينيين كما سماهم: «ويمكن أن نتحدث عن الأدب الديني مثلا في الأدب العربي المعاصر فنستحضر يوسف الخال في معظم أشعاره، وغازي فؤاد براكس في ديوانه (أنا والله والعالم)...»12

وحتى يتوفق الكاتب في إدراج أفكاره وما توصل إليها؛ انتهى إلى تقديم مجموعة من النتائج أو الخلاصات أجملها في سبع، أهمها اعتبار: «القيم الجمالية في الأدب الإسلامي أساسية وجوهرية، وليس الأدب الإسلامي أدب مضمون فحسب،

وإن كان يعطي المضمون حقه، ولا أدب فكرة فحسب، وإن كان لا يتغاضى عن الفكرة: ولكنه -باعتباره أدبا- أدب الجمال بالدرجة الأولى، إذ حين يفقد الأدب صفة الجمال يفقد أدبيته، أي يفقد جوهره.»13

وبهذا يمكن القول إن حسن الأمراني استعان بالطريقة الاستنباطية التي ينتقل فيها من العام إلى الخاص، حيث استهل بحثه بالحديث عن أدب الفترة باعتباره الأصل الذي بدأه جل الدارسين في مجال تأريخ الأدب، ومن ثمة انتهى إلى أدب الفطرة التي جعلها الله سبحانه وتعالى جبلة المسلمين خاصة والناس عامة.

كما يمكن القول إن الباحث استطاع أن يطَوِّعَ الحرف ليجعله منطلقا لتغيير المعنى في الكلمة بين: الفترة، والفكرة والطفرة والفطرة، وأن يكون الأدب جامعا بينها دالا على كونية الحرف والكلمة الإبداعية.

لذلك نصل إلى أهمية الكتاب من حيث توصيل المعنى والمقصد، ولعل الوظيفة التواصلية هي المخرج الذي اعتمده الباحث، إذ بفعل تقريبه المفاهيم والمصطلحات يتواصل والمتلقي ليعبِّر عن فكرته، وليعْبُرَ معه جسر الغموض الدلالي في ما يخص مفهوم الأدب الإسلامي كما يتبناه.

التنظير للأدب الإسلامي

حاول الدكتور الشاعر حسن الأمراني منذ عقود أن يضع تعريفا للأدب الإسلامي، يستطيع أن يجعل منه أدبا إنسانيا عالميا، فكانت رابطة الأدب الإسلامي التي ما فتئت تخوض معارك البحث عن الهوية، ثم تأصيل فكرة الأدب الإسلامي والترويج لها، والبحث عن روادها في كل أنحاء العالم.

وكان لمجلة الأدب الإسلامي ومجلة المشكاة الدور الأول في بناء المفهوم ونشره، وجاء كتاب (سيمياء الأدب الإسلامي- المصطلح والدلالة) ليجمع شتات التعاريف ويخلص إلى عالمية الأدب الإسلامي، وهو المقصد الأول والأخير.

إن ما يهمنا هنا أن نركز على الجانب المنهجي، لنصل إلى اعتبار الكاتب أحد مؤسسي الأدب الإسلامي، واستطاع في هذا الكتاب أن يقدم رؤيته بكثير من التفصيل والنمذجة والتأطير والتدريج: كما اختار أهم القرارات التي تصلح تقارير نهائية لعمله، فكان مبدأه البحث عن أصول المصطلح، ليصلح إلى نهاية مرسومة سلفا، ومن ثمة يمكن التأكيد أيضا على فرضية النتيجة المقدرة والمتوجة قبل تسليط الضوء عليها.

ومن ثمة تكون الخلاصات أيضا فرضيات لكتابات لاحقة قد ينتج عنها فكر مستقبلي يتداركه أو يكمله الآخرون.

وصل حسن الأمراني نهاية إلى تأكيد فرضية (عالمية الأدب الإسلامي) وكونه أدبا جماليا بامتياز، أما من خاض من المسلمين في الأدب وصب جام غضبه على الإسلام ومبادئه فهو أولا وقبل كل شيء خارج عن فكرة الناس التي فطر الله عبادة عليها.

خلاصة

كان اهتمامنا في هذا المقال المتواضع بتسليط الضوء على الشاعر حسن الأمراني من جانب اهتمامه بالنقد والدراسة الأدبية، من خلال كتابه (سيمياء الأدب الإسلامي). واستطعنا أن نقف عند أهم القضايا التي أثارها، وعلى المنهج المتبع، لاستخلاص فرضية البحث العلمي المركز على تأكيد الاحتمال وتبريره وإعطاء الأدلة على صحته من الأصول الدينية أولا ثم باقتراف النص الأدبي نفسه ثانية.

العيون الشرقية 20 شعبان
1435هـ الموافق ل 18 يونيو 2014

هوامش:

1- حسن الأمراني: لو كان قلبي معي، مؤسسة النخلة، وجدة، ط. 1، 2005، ص. 9.1
2- المرجع نفسه، ص. 11.2
3- حسن الأمراني: سيمياء الأدب الإسلامي، المصطلح والدلالة، مؤسسة الندوي، وجدة، نونبر 2005.3
4- حسن الأمراني: سيمياء الأدب الإسلامي، ص. 8.4
5- المصدر نفسه، ص. 7.5
6- المصدر نفسه، ص. 12.6
7- حسن الأمراني: سيمياء الأدب الإسلامي، ص. 15.7
8- المصدر نفسه، ص. 23.8
9- المصدر نفسه، ص. 38.9
10- حسن الأمراني: سيمياء الأدب الإسلامي، ص. 52.10
11- المصدر نفسه، ص. 65.11
12- حسن الأمراني: سيمياء الأدب الإسلامي، ص. 83.12
13- المصدر نفسه، ص. 118.13

أنتيجون خارج النفق

قصة

محمد زهير

في مواجهة حالة أنتيجون التبس الطريق على المدرس، فالجاهز لديه عن هذه الحالة يضيق عن انفلات كثافة رمزها. الجاهز لديه عن العقد والعصابات لم يسعفه أمام هذا الجموح المذهل لشابة تتوقد تمردا، تمتد جذوره إلى طفولتها المنجذبة إلى الماء والنار. إحساس غامض بعدوان جائر يساكنها منذ الطفولة كالجرح المزمن، إحساس غامض كان بؤرة التقاء سري بين الطفلة الجميلة المتوهجة ذكاء، وبين أوديب الأب والأخ في الآن نفسه. التقاء في مدار عاصفة عاتية تواطأت في ترتيب فصولها أشباح خفية وخدم لها دليلهم العماء .

حين يحكي أوديب عن فكه لغز الوحش في مدخل مدينة» ثيبا» يلمح في عيني طفلته حيرة كأنما تبحثان عن سر خلف الحكاية . وأول ما ذكر صيغة اللغز أجابت الطفلة الذكية تلقائيا:

- إنه الإنسان .

وأمعن أوديب في ملامح الطفلة فرأى ما يشبه طفولة منفاه .. في الداخل مشترك بينهما كالتراسل من خلف سجاف ..

وكلما حاول المدرس أن يحشر أنتيجون في قالب المصادرة على المطلوب، انسلت جامحة فلا يطول غير نثار الهباء.

- كيف أحاصر هذا الانفلات في عقدة جاهزة؟!

سأل المدرس مرجعه الجاهز، فلم يسعفه بغير المستقر الجاهز .. واستحضر أن تلميذاته وتلاميذه يعتريهن ويعتريهم انطفاء بارد حين يحسون أن كلامه يراوح في السطوح ولا ينفذ إلى الأعماق .. وتذكر أن تلميذة نبيهة بادرته حين أشار عليهم بقراءة نص أنتيجون إعدادا لدراسته: « آه.. أنتيجون .. العادلة.. «، أنفذت التلميذة العبارة لمعة ضوء التقطتها نفوس منجذبة إلى هسيس أحلامها ..

ولاحت للمدرس صورة أنتيجون وهي تقود أباها-أخاها أوديب في منفاه بعيدا عن « ثيبا» إلى فضاء أرحب، وعيناه الضريرتان مصوبتان داخله حيث أناه تنصت إلى أناها، وبصوت واثق يبوح لأنتيجون بما تمليه عليه ذاته خارج الأسوار ..لاحت للمدرس الصورة ملفوفة في غيمة رمادية منطوية على مالا يطفو على السطح، فراوح في مدار منغلق راكد، وطوى الصفحة على السراب..! .

وفي ليلة سأل أوديب مرافقته في المنفى:

-أتعرفين يا عزيزتي لماذا اندحر الوحش لما فككت لغزه ؟

- ذلك يرتبط بمعنى اللغز : الإنسان .

- بالضبط .. أدرك الوحش أن تلك نهايته، شأن كل العتاة ..

- نعم.. فالعتاة تقض يقظة الإنسان مضجعهم.

- تجاوبك يا عزيزتي يبدد غربتي .

- الغربة في جهل حقيقتنا .

- هو ذاك ياعزيزتي ..وكم أخشى أن تعودي إلى مدينتك غريبة .

- مهما يكن فلن يفارقني تطلعي .

- لا أشك في ذلك .

وكلما تقدم المدرس في هذا التباوح بين المغترب ومرافقته، كلما ضاقت السبل عليه، فظلت حالة أنتيجون بعيدة كل البعد عن المستقر في ذهنه وفي ضيق صفحاته التي اعتراها الذبول، ولا تفارق استحضاره إنفاذة التلميذة النبيهة: « آه.. أنتيجون.. العادلة «، ولا تفارق استحضاره نظرات التطلع في عيون التلميذات والتلاميذ إلى محاورة أنتيجون في الرغبة والفعل ومصاحبتها في سفر اكتشاف جديد..

وقبل أن يغيب الموت الضرير ذا العين الثالثة، قال لأنتيجون:

- كوني كما أنت، كما كنت أنا أنا ..

وأجهشت البنت بالبكاء وروحها تتعقبه وهو ماض إلى مرقده الأبدي ..

وعادت إلى «ثيبا» وحاكمها يعرف من هي.. وحين قطع بترك جثة أخيها القتيل دون دفن، قال في نفسه :

- لعل شرادها وهي تقود الأعمى في منفاه قد خضد شوكتها .

ولم يتوقع أن الاغتراب قد زاد ساكنها التهابا .

- لست ممن تتوهمهم، وسترى ذلك بعمائك أنت .

وتحت جنح الظلام انسلت إلى العراء حيث ألقيت جثة أخيها للكلاب الضارية وللجوارح، وبأظافر إرادتها حفرت التراب الأمين ووارت الجثة .. وعادت إلى مأوى لا تجد فيه سكينتها.. وقبل إسفار الصبح أقبل عليها طيف أوديب، وبقلب عطوف أسر إليها :

- سيقبرونك حية يا عزيزتي في وحشة كهف قصي، لكن بفعلهم سيكون خرابهم .

- لا تقلق علي فالقيمة تسكن ضميري، سأمضي في طريقي وأتركهم في دمار داهم .

وتابع المدرس قراءة الأحداث، وكلما راوح في دائرة جاهزه، حاصرته قضية العدالة .. فتاة بإحساس إنساني عميق، وتجربة مأساوية عصفت بمؤلفها ..فكابدت مع الرائي قسوة المنفى، وعادت وحيدة إلى مدينة يحكمها مزاج متصلب عنيد مصرة على ملازمة الفعل للإرادة .. في معاصف هذه التقاذفات أين لأية عقدة أن تحيط بتداعياتها !..

وقرأ المدرس في صفحاته الجاهزة الضيقة أن عقدة أنتيجون ترادف عقدة إلكترا ! فصاح بصوت الظل: «وجدتها» ! .. ونام مطمئنا إلى هذا « الكشف « .. وفي حلمه وقفت عليه فتاة لم يتبين ملامحها، وبصوت واثق خاطبته :

- أتعرف من أنا ؟

-لا .. لا أعرفك .

- طبعا، فأنت تمضي دون ضوء .

- لكن، من أنت ؟

- أنا من اختزلت فيما ماتقرر واستقر أنه عقدة !

- عقدة أنتيجون وإلكترا !

- ها أنت ترى أنك تختزل القيمة في نفق عقدة !

- أية قيمة ؟!

- العدالة..قيمة القيم الأكبر من أن تختزل في الإسقاط الذي صرت سجينا له ! .. فلتفك عنك عقدة الظل !

-عقدة الظل ؟!

- اتركوا التلميذات والتلاميذ يقرأون ويستخلصون، اتركوهم يتمثلون ويراجعون وسيعطونكم إشارات آفاق لم تطرقوها..

وفي شبه يقظة تراءت له شجرة عليها ثمار جاذبة لا عهد له بها، كلما مد يده لقطف واحدة منها لفها سراب غياب، أو سبقه لالتقاطها طائر يحلق بها إلى حيث يختفي عن نظره، فيتوقف حائرا وينفذ إليه صوت من جهة الشجرة ذاتها:

- حيرتك البداية لفك عقدتك، فتأهب للسفر ومركبك السؤال.. فالشجرة تبذل للطائر ثمارها لأن روحه مسكونة بفعل التحليق في رحابة الفضاء، وهي في انتظار تحليقك أنت خارج أسر الجدران ..

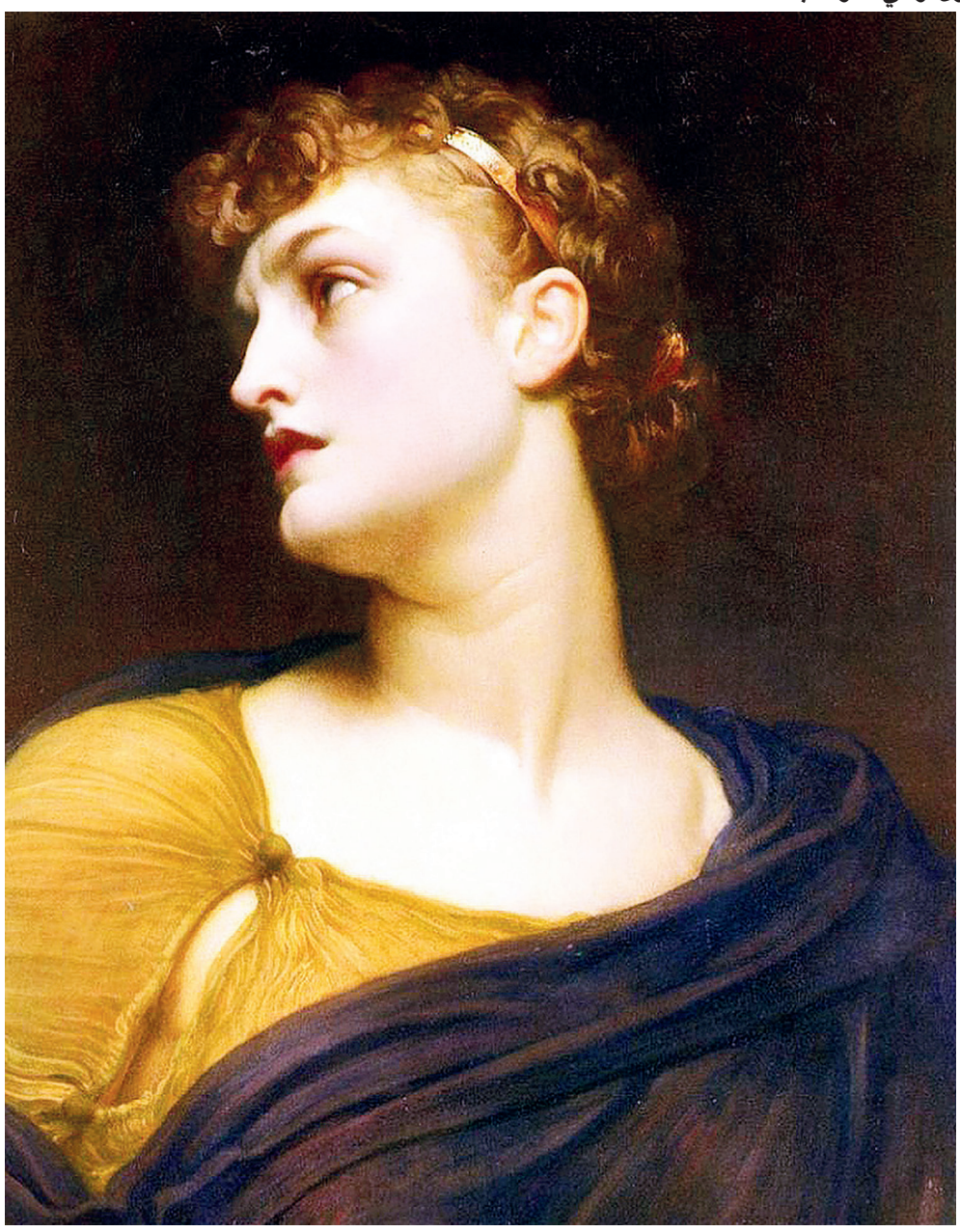

أنتيجون كما تخيلها والنحات «فريدريك لايتون» (1830 - 1896)